بِأَيْدٍ خَفِيَّةٍ

بأيدٍ خفيَّة: رواية

الكاتب: أحمد حجازي

إخراج فني: الباشا عبدالباسط

رقم الإيداع: 27859 / 2019

الترقيم الدولي: 1 - 091 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع :**Facebook Page**

E- mail: bentelzayat1@gmail.com

Website: www.bentelzayat.tk

مجلس الإدارة / د. شاهندة الزيات

المدير العام/ أ. محمود محروس إبراهيم

01066736765 - 01011122429

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار الزيات المشهرة قانونًا بسجلّ تجاريّ رقم / **49351**

9 789778 440911

بِأيدٍ خَفِيَّةٍ

رواية

الكاتب

أحمد حجازي

دار الزيان للنشر والتوزيع
صدق حلمك يتحقق

إهداء خاص إلى

- والدي ووالدتي.
- عائلتي بأكملها.
- إلى من ساعدني في إخراج هذا العمل.
- أسامة محمد، خالد عبد الفتاح ومحمد عادل.

إهداء بشكل خاص إلى من يعاين الموت بشجاعة يوميًّا بسيناء على يد إرهاب غاشم.. مدنيين عُزَّل ورجال شرطة وجيش.

❋ ❋ ❋

ليتنا ندرك أهمية الإعلام الذي أصبح يُوجّه كاميراته إلى الحقيقة ليطمسها، وإلى خصور النساء ليكشفها، فقضى أحدهم نَحْبه ليقضي الآخر شهوته!

❋ ❋ ❋

صيف 2010

- "سأموت! لمَ تفعلان هذا؟!".
- "بل أنت تتظاهر بالموت، ولن نتركك إلا ميتًا".

انهال الرجلان عليه ضربًا وسحلًا حتى شفيا غليلهما غير المبرر، وسط تجمع المارة في استغراب، لم يعد للجثة ملامح لما لاقته من أفعال هيستيرية لا يتحملها بشر، مرّ طبيب الحي صدفة وهمّ بتفقد نبض الجسد الملقى على الأرض، لم يتطلب الأمر أي معدات فهو واضح كالشمس، قام الطبيب قائلًا في حزن بيّن: "لقد فارق الحياة"!

الثلاثون من سبتمبر عام 2000
الثالثة والنصف فجرًا
مخيم البريج، قطاع غزة

قطع صوت الأذان الطريق إلى أذنه فاستيقظ فزعًا؛ ظنًا منه أنه تأخر على موعد لحاقه بالحافلة التي تقله إلى المعبر الحدودي بقطاع غزة، والتي يستقل بعدها حافلة أخرى توصله إلى العمل قبل السادسة صباحًا، توضأ وصلى الفجر، ثم قبّل أطفاله السبعة ورحل.

فُوجئ ومن معه عندما وصلت الحافلة إلى المعبر الحدودي بأنه تم إغلاق الحدود بسبب أعمال العنف التي نشبت بالأمس والتي يُتوقع أن تزداد هذا اليوم.

لم يُسمح لهم بالمرور على الرغم من أنهم عمال يسعون ويكدحون ليجنوا قوت يومهم، ولا وقت لديهم للانضمام لاحتجاجات أو ما شابه.

يعمل نجارًا مع مقاول عام إسرائيلي يُدعى (موشيه تمام) ولا يملك الحق في التفكير في حكم العمل مع اليهود، لقد تمكَّنوا من بسط سيطرتهم على فلسطين فأصبحوا كالجزء منها، لكن ليس كأي جزء، إنه الجزء الذي يحمل الدماء الفاسدة وفي حاجة ملحة لحجامة.

عادت الحافلة إلى المخيم ثانية بعد أن وجّه الجنود لمن يستقلها نظرات استهزاء وحركات بذيئة بالأيدي وكلمات عبرية تبدو نابية.

دخل منزله فوجد زوجته قد استيقظت، تعجبت عندما رأته فبادرت بالحديث:

- "ماذا حدث؟! لمَ لم تذهب إلى العمل يا جمال؟".

- "لقد ذهبت بالفعل، لكن لم يسمح لنا الجنود بالعبور بسبب أعمال الشغب".

- "وهل علم أصحاب العمل بالجهة الأخرى سبب تغيبكم؟".

- "معظم العمال من هنا من المخيم، وبالتالي سيتكهنون هذا، لا تقلقي".

- "أنا سعيدة بهذا، أخيرًا ستتناول الإفطار وتقضي اليوم معنا".

- "نعم، أنا سعيد كذلك، لكن أتمنى أن يمر اليوم بسلام".

- "ما سبب قلقك؟".

- "هناك أعمال شغب مُتوقعة".

- "ليست أعمال شغب، إننا في اليوم الثاني من انتفاضة الأقصى، ألا تدري هذا! كما أنها أرضنا وعندما نحاول الدفاع عن قطعة منها لا يعني هذا أعمال شغب".

- "بلى، أنتِ محقة، ولكن أكثر الضحايا شهداءنا وليس قتلاهم".

حرك رأسه مستسلمًا.

- "أما زال الأطفال نيامًا؟".

- "بالتأكيد، دعهم فلن يستيقظوا الآن، ما زال الوقت مبكرًا".

- "حسنًا، هيا نشاهد التلفاز لنعلم آخر التطورات".

بينما يجول بين قنوات التلفاز عرضت إحداهن صورًا لفتاة تجري عارية باتجاه أحد المصورين، صُدمت زوجته من هول ما شاهدت إلا أنه لم يُعر انتباهًا لما رأى وقام بتغيير القناة.

- "ما هذه الصورة؟! أرجوك عُد للقناة السابقة".

- "أتقصدين هذه الفتاة؟".

- "فتاة!".

- "نعم إنها فتاة، الفتاة الفيتنامية إحدى ضحايا الحرب التي لم ينتصر بها أحد، ألم تسمعي عنها من قبل؟".

هزّت زوجته رأسها نفيًا فتعجب: "لا! إذن سأتركك تشاهدين التلفاز وأذهب لأُحضر بعض الخبز لوجبة الصباح".

تركها تشاهد التلفاز وخرج.

كان تقريرًا عن الحرب الضارية في فيتنام، ومن ضمن اللقطات التي أُذيعت ولم يُعلق عليها لحظات لفتاة تجري عارية باتجاه أحد المصورين. أكمل المعلق في سرد أسباب الحرب ونتائجها، ولم يتطرق إلى الفتاة التي شغلت بال أمل زوجة السيد جمال.

ارتفع صوت المعلق: "حرب فيتنام أو كما يُطلق عليها البعض الحرب الهندوصينية الثانية، حرب اندلعت في الفترة ما بين 1 من نوفمبر عام 1955 إلى 30 من أبريل عام 1975 بين شمال فيتنام وجنوبها، كان يدعم الاتحاد السوفيتي والصين شمال فيتنام، بينما كان كل من الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية وتايلاند وأستراليا ونيوزيلندا والفلبين حلفاء للجنوب، راح ضحية هذه الحرب نحو مليون ومائة ألف قتيل، بالإضافة إلى ستة عشر مليونًا ما بين جريح ولاجئ من صفوف الفيتناميين فقط، وأكثرهم من الأبرياء، فيما بلغ ضحايا الولايات المتحدة التي سرعان ما أرسلت قوات عسكرية وشنت غارات جوية على الشمال، بضع عشرات الآلاف التي لا تقارن بملايين فيتنام".

جال بخاطرها ما تعانيه الشوارع بالخارج، الأزقة الفلسطينية العتيقة.. المساجد.. الكنائس.. الناس، ولوهلة أكبر أطفالها وزوجها.

كان بمثابة تقرير لا يغني ولا يسمن من جوع عما حدث للفتاة هذه وما قصتها، فاكتفت بمشاهدة صور للطائرات الأمريكية وهي تقذف قنابل "النابالم" على البيوت الآمنة والأبرياء، وبلعن أمريكا لتدخلها في كل كارثة عنوةً لجعل الأمور تزداد سوءًا.

انتظرت عودة زوجها علها تجد عنده إجابة شافية، عاد إلى المنزل بعدما أحضر الخبز فوجدها قد أغلقت التلفاز وجلست في انتظاره.

- "ماذا بكِ؟".
- "ما خطب تلك الفتاة؟ شغلت بالي".
- "ما الأمر؟".
- "لم يتحدث التلفاز عنها!".
- "لا أعلم كيف سيتحدث التلفاز عن فيديو يدين دولًا من المفترض أن تخمد نيران الحرب لا أن تُشعلها، ويبرز وحشيتها وأنها لا تضع أنفها في شيء إلا أفسدته!". صمت قليلًا ثم قال: "لكني أعرف قصتها، لا تقلقي سأخبرك إياها لكن بعد تناول الإفطار".
- "لا إفطار قبل أن تخبرني".

نظر في عينيها فلم يجد إلا الإصرار الممزوج بالاستنجاد، يرى أطفاله في عينيها كلما دقق أكثر.

- "حسنًا! حسنًا! لست مجرد عامل، أقرأ.. أجوب الحقائق.. أشاهد وأتذكر قصتها جيدًا، سأُخبركِ لكن أنصتي".

ابتسم ثم بدأ في سرد الأحداث: "خرجت هذه الفتاة (كيم فوج) في أحد أيام صيف عام 1972 من معبد يقع بمدينة (ترانج بانج) جنوب فيتنام؛ لتشاهد ما الذي يُصدر الأصوات العالية التي دوت وقتها، رأت بعض الطائرات تحلق بالقرب من الأرض وتُلقي بأجسام تجهل ماهيتها...".

قاطعته زوجته: "تقصد قنابل "النابالم"؟".
- "أحسنتِ، كيف عرفتِ هذا؟".
- "الفيلم الوثائقي الذي شاهدته منذ قليل".
- "هل تعلمين أن هذه القنابل محرمة دوليًّا؟".

رأى أمارات الدهشة على وجه زوجته فأكمل: "نعم محرمة دوليًّا؛ حيث تعتبر أسلحة كيميائية، فهي عبارة عن سائل هلامي يسبب حروقًا من الدرجة الرابعة والخامسة إذا مسّ الجلد".

- "كيف تكون محرمة دوليًّا وقد استخدمتها القوات الأمريكية في حرب فيتنام؟!".

- "كم من المفترض أن أعيد هذا؟ تخرق الولايات المتحدة القانون ولا تجد من يُوقفها وإن وُجد فلن يأخذ القانون أبدًا مجراه في شيء يخصها أو يخص إسرائيل".

- "وهل كانت إسرائيل طرفًا في هذه الحرب؟".

- "لإسرائيل أطراف في أكثر الحروب، لكني أقصد أن إسرائيل أيضًا تخرق القوانين وتقتل الملايين دون وجه حق، أعاين هذا يوميًّا حتى وأنا أحضر الخبز! لكن الآن دعيني أُكمل قصة الفتاة".

- "أكمل!".

- "أصابت المادة الهلامية جسدها الغض، فقد كانت بنت تسع سنين وقتها، كانت تهرول يمينًا ويسارًا من شدة الألم الذي وقع بها ولا تدري أين تذهب، تسببت المادة في حرق ملابسها، كما أن شدة آلام

الحروق أنستها أنها تجري في وسط الشارع عارية.. نعم عارية، مشهد يجعلكِ تعيدين التفكير في فكرتك عن ضحايا الحرب، فهناك أسوأ من أن تموت أو أن تفر هربًا".

هزت السيدة أمل رأسها تفهمًا فأكمل: "رأت كيم مجموعة من الصحفيين يصورون الطائرات فهرولت باتجاههم ترجوهم أن يعطوها بعض الماء لتخفيف آلامها، حينها وجه الصحفيون كاميراتهم تجاه الفتاة لتصوير مشهد لم يخطر ببالهم يومًا، جاء لينقل الفيديوهات عما يحدث فالتقط صورة واحدة أفصح من مئات الفيديوهات!".

زفر في هم، وقال: "لكن لا أدري هنا أأشكر أم أحتقر المصور الذي ترك الكاميرا دون تفكير ليعطي للفتاة ماء علَّه يخلِّصها من الألم.. الألم الذي قرأ عن ضراوته مسبقًا، إلا أنه لم يقرأ بما فيه الكفاية ليدرك أن الماء يزيد الأمر سوءًا!

عندما وضعت الماء على ذراعها الأيسر الذي أكلته الجروح كان كأنها أفرغت محتويات القنبلة عليه، ولم تتمكن من تحمل الألم وفقدت وعيها.

أوصلها المصور إلى المستشفى حيث وجدها والداها بعد ثلاثة أيام من الحادثة في قسم المُتوقع موتهم".

- "يا إلهي! ألهذه الدرجة كانت حالتها سيئة؟".

- "نعم، سيئة جدًا، فعلى الرغم من إجرائها لسبع عشرة عملية جراحية إلا أن الآلام ظلت مصاحبة لها".

ضرب الشجن قسمات وجه السيدة أمل فيما أتبع زوجها: "بعدها بدأت كيم في البحث عن مجرى جديد لحياتها فاعتنقت المسيحية بعد تردد كبير على الكتب بالمكتبات وقراءة الكثير من الأبحاث الدينية التي أرشدتها إلى أن المسيحية هي الملاذ، ومنها تعلمت مسامحة من فعل بها هذا، ألهمت قصتها الملايين لا سيما أن هذه القصة كانت عاملًا أساسيًا في وقف الحرب في فيتنام؛ نشبت مظاهرات في الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام تدعو إلى وقف الحرب، وعلى عكس انتفاضتنا نجحت هذه المظاهرات وأوقفت حربًا دموية، مع أن القبائل الفيتنامية لقنت الأمريكان درسًا باسم "حرب العصابات"؛ أهدروا أموال وسلاح الولايات المتحدة بإستراتيجية الكر والفر.

تزوجت كيم وحظيت بطفلين، كما أنها اتخذت من قصتها عملًا حيث جابت العالم لإلهام الناس بما لاقته في حياتها، وكانت تخبر معجبيها دائمًا أنها تخجل من هذا الفيديو الذي يظهر بشاعتها وعُريّها إلا أنها فرِحة لأنها ساهمت في إيقاف قتل الملايين".

لم يعط فرصة لزوجته للتعليق وسأل: "أتدرين يا عزيزتي ما الذي أحبه في قصتها؟".

- "ماذا؟!".

- "أن صورة واحدة فقط لم يكن المصور على استعداد لالتقاط مثلها كانت سببًا في إنهاء حرب استمرت لسنوات، هنا يا عزيزتي تكمن قوة الإعلام، هنا تُعبر الصورة عما لا يستطيع الإنسان التعبير عنه بملايين الكلمات، أرى دائمًا أنه يجب على الإعلام التفنن في إيجاد طرق

تُوقف الحروب والإرهاب وتُبرز الجانب الإنساني من الحرب، وتُوضح لرؤوس الأفاعي _التي تُصدر فحيحًا مستمرًا غايته مشاكل عالمية يروح ضحيتها ملايين الأبرياء_ أن ما بعد الحرب دائمًا أسوأ ولا يلي الانفجار سوى خراب، لهذا أتمنى دائمًا أن ينتهي ما يفعله الإسرائيليون في أرضنا وقدسنا وأن يخرج من بين الصخور من يردعهم ويرد كيدهم إلى نحرهم ويهزمهم شر هزيمة".

تنهد بهدوء، ثم أكمل: "وأتساءل أيضًا هل سيكون هناك فيديو يثير العالم ضد إسرائيل بقوة فيديو كيم؟".

- "لا عليك يا عزيزي فالله ناصرنا ولو بعد حين".

- "إن شاء عز وجل".

- "هيا أيقظ محمد لكيلا يتأخر عن المدرسة وأنا سأحضر الفطار".

- "أظن أنه لا مدرسة اليوم أيضًا، فما زالت المناوشات مستمرة بين قوات الأمن الفلسطينية وبين الإسرائيليين".

- "إذن دعه نائمًا فالاستيقاظ المبكر يزعجه".

- "بل سأدعهم نيامًا جميعًا، فلا داعي لإيقاظهم لسماع دوي طلقات الرصاص هذه ولا المشاهد الدامية التي يعرضها التلفاز، ما يزالون صغارًا".

ضحك بحرقة بعد التفكير فيما قاله للتو.

- "صغار! أي صغار؟! وُلدوا جميعًا وقت مداهمات الإسرائيليين للمخيم، أذنان صغيرتان.. أذن تلتقط الأذان والتكبير لأول مرة،

والأخرى تجاهد في معرفة ماهية الطلقات ودوي الرصاص وإلى أي عالم تنتمي هذه الأصوات!".

تنهدت السيدة أمل، ثم قالت: "أنت على حق".

مرت ساعتان قبل أن يستيقظ محمد الذي قبّل والده، ثم سأل: "ألن تذهب للعمل اليوم؟".

- "لا يا بني، حاولت الذهاب لكن المعبر مغلق".

- "أنا أيضًا لن أذهب إلى المدرسة اليوم، لكن لم أحاول الذهاب بل استيقظت متأخرًا".

ضحك الوالد، ثم عقّب: "حتى ولو استيقظت مبكرًا ما كنت لأتركك تذهب".

- "لماذا؟!".

- "لأن الأمور غير مستقرة يا بني وأخشى عليك مما يحدث".

رد محمد ببراءة: "أخبرني أصدقائي أن هناك انتفاضة ومظاهرات ضد العدو الصهيوني".

- "نعم، والعدو يقابل هذا بالرصاص والقنابل، وعليك الابتعاد عن هذه المناطق، ولا تخرج من البيت أن لزم الأمر".

- "لكن يا والدي أود أن أنضم إلى المظاهرات وأن أهتف ضد إسرائيل، أليست هذه أرضنا ومن حقنا الدفاع عنها؟".

- "البركة بالشباب يا بني يبذلون أقصى ما في وسعهم لكن أنت ما زلت صغيرًا".

- "هل يمكن أن نخرج قليلًا لنرى الانتفاضة؟".
- "سنخرج، ولكن ليس للانتفاضة".
- "إلى أين إذن؟".
- "سنذهب إلى مزاد سيارات بخصوص أمر متعلق بعملي، هيا اذهب لتتوضأ ثم صلي واستعد".
- "حسنًا يا والدي".
رمق محمد والدته، ثم ذهب باتجاه الحمام.

- "هل حقًا ستأخذه معك؟".
- "نعم بالتأكيد، لقد وعدته".
- "ولكني أخشى أن...".

قاطع زوجته قائلًا: "لا تقلقي يا عزيزتي، لن نتأخر".

صاحب محمد والده إلى المزاد، أنهى الوالد عمله، ثم همّ بالعودة إلى المنزل، استقلا سيارة أجرة وبينما هما في الطريق توقف السائق فجأة بالقرب من شارع صلاح الدين عندما رأى الاحتجاجات، فسأله السيد جمال: "لماذا أوقفت السيارة؟!".
- "ألا ترى الاحتجاجات يا أنت؟! لن أتمكن من العبور وسط هذا الحشد".
- "وما الحل إذن؟".
- "لا أدري".

ارتجلا من السيارة، كانت الشمس في كبد السماء وأشعتها محرقة إلا أن محمد كان سعيدًا جدًا برؤية المحتجين وقوات الأمن، طفل يجد نشوة مختلفة لا يدري ما هي، تمنى أن ينضم إليهم، أمسك والده بيده ثم بدأ في عبور التقاطع، حينها ظهر بعض الجنود الإسرائيليين في الجهة المقابلة من قوات الأمن، ودون سابق إنذار تبادل الطرفان إطلاق النار، احتضن وقتها السيد جمال ولده ثم تراجع إلى الخلف وعن فكرته في عبور التقاطع إلى جدار يحتمي وراءه الكثيرون، تحولت ملامح الإعجاب والسعادة على وجه محمد إلى مزيج من الرعب والخوف.

- "ماذا يحدث يا أبي؟".
- "لا تقلق يا بني، لا تقلق نحن بمأْمن هنا، لكن عندما يتوقف إطلاق النار يجب أن تعبر معي بأسرع ما يمكن".

رد محمد بعد أن ابتلع ريقه توجسًا: "حسنًا!".

توقف إطلاق النار، كانا وقتها على أهبة الاستعداد لعبور التقاطع إلا إنهما انتظرا قليلًا حتى ساد الصمت، أمسك بيد والده الذي صرخ قائلًا: "اركض يا بني، اركض".

وبينما يعبران الطريق بدأ إطلاق النار مجددًا فألقيا نفسيهما بجانب جدار خرساني لا جدوى منه، كانت الحماية وقتها من برميل أسمنتي لا يتجاوز طوله مترًا واحدًا، ظل محمد يصرخ بأعلى صوته بل

ودخل في حالة هيستيرية من الصراخ؛ فقد كانت الرصاصات تتساقط عليهما بعد اصطدامها بالحائط أعلاهما، رأى والده _وسط صراخه ومحاولات لا جدوى منها منه لتهدئته_ شيئًا يلمع نتيجة سقوط أشعة الشمس عليه، سرعان ما أدرك أنها كاميرا وأن أحد المصورين متخفي لتصوير ما يحدث، ظل بين تلويح للقوات الإسرائيلية لوقف إطلاق النار وبين إشارات للمصور للتدخل، إلا إنها كانت محاولات يائسة لم تزد إلا من شدة إطلاق النار، خاصة عندما لاحظت قوات الاحتلال أن هناك ضحايا خلف البرميل، هنا ابتسم الإسرائيليون فقد بدأ الأمر يزداد متعة بالنسبة لهم، هناك ضحايا عزل في حاجة للمساعدة، إذن تبًا لقوانين الحرب ولتسقط المعاهدات ولتسقط الحقوق!

أشار أحد الجنود الإسرائيليين عندما رأى طفلًا بين الضحايا إشارة مفهومها (تركع الإنسانية أمامي لتستجدني أن أتوقف.. لن أفعل).

أُلقيت قنبلة صغيرة في منتصف المنطقة بين المصور والسيد جمال وولده وقذفت بالغبار في اتجاه كليهما فأصبحت الصورة مشوشة قليلًا في إطار الكاميرا، لكن لم يمنع هذا التشويش المصوِر من إدراك أن أحد الضحايا قد فارق الحياة أو كليهما.

أُصيب محمد بجرحٍ بالغ في بطنه، وكانت أحشاؤه على وشك الخروج من موضعها، بالإضافة إلى رصاصات أصابت جانبه وذراعه، وظل ينزف حتى وصلت سيارة الإسعاف بعد توقف إطلاق النار، حمله سائق سيارة الإسعاف ووضعه بها ثم وضع والده وقام بمساعدة المصاحب له بإخراج أحد القتلى من سيارة جيب ووضعه في سيارة

الإسعاف قبل أن تباغت بعض الرصاصات السائق وترديه أرضًا، حينها حمله المسعف الآخر المصاحب له ووضعه إلى جانب الأجسام المتراكمة في مؤخرة السيارة، ثم قاد بسرعة باتجاه أقرب مستشفى من موقع الحادث.

وصل إلى مستشفى الشفاء في قطاع غزة وسرعان ما تم نقل المصابين إلى قسم الطوارئ، ومن ثم تم توزيعهم إما إلى العناية المركزة أو المشرحة، كان الناجي الوحيد من هذا الحادث هو السيد جمال على الرغم من اختراق الرصاصات لذراعه وإصابته إصابة بالغة في منطقة الحوض وأسفل الساقين، بينما ذهب كل من محمد وصاحب السيارة الجيب وسائق سيارة الإسعاف إلى المشرحة بانتظار من يتعرف عليهم أو يسأل عنهم.

فقد الكثير من الدماء وكان في حالة سيئة جدًا وشبه فاقد للوعي إلا أنه لم يكف عن السؤال عن ولده.

- "أرجوكِ أخبريني أين محمد ولدي، أين؟".

ردت الممرضة بنبرةٍ حزينة بعد أن فشلت في تهدئته: "لله ما أعطى ولله ما أخذ يا سيدي".

تملكت الدموع من عينيه ثم فقد وعيه فأمسكت إحدى الممرضات بذراعه وظلت تنادي: "سيدي! سيدي!".

لم تلقى إجابة فذهبت لإخبار الطبيب الذي أتى واستغل غيبوبته في تضميد الجراح وإزالة الرصاصات من جسده.

تم التوصل إلى عائلة السيد جمال وتسليمهم جثمان محمد، طفل حلم أن يرتدي علم فلسطين حول عنقه ويقف في مواجهة الاحتلال حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

أيقن المصور الذي جثا خلف سيارة صغيرة أن عدسته التقطت مشهدًا لا بد من نشره لكي يوقن العالم ما يفعله الاحتلال في الأراضي الفلسطينية، التقط مشهدًا سيفطر قلوب مشاهديه لا محالة، جريمة إنسانية أخرى تلوثت بها أيدي قوات الاحتلال، انتظر المراسل قليلًا حتى يتوقف إطلاق النار تمامًا ثم وضع الكاميرا داخل حقيبته وهرول متجهًا إلى معمله الخاص ليرسل من هناك اللقطات إلى مقر قناة فضائية بالقدس.

ها هو محمد يرتدي العلم الفلسطيني، ولكن ليس حول عنقه فقط بل على الجسد بأكمله ككفن شهيد على جنازة، جنازة اهتزت فيها قلوب المشيّعين لجسد غضٍ إلى مثواه الأخير، دماء شاهدة على وحشية قوم اتخذوا من قتل الأنبياء هواية من قبل، لم يستح بنو إسرائيل يومًا فليصنعوا ما شاؤوا، اجتاحت الجنازة شوارع مخيم البريج منذرة بغدٍ أسوأ ولكن نصرًا أقرب.

ارتفعت صور الشهيد محمد الدرة بجوار علم فلسطين وشارة سوداء تعلن حدادًا على روح جديدة أرادت أن تحظى يومًا بشرف الدفاع عن وطنها قبل أن ترجع إلى بارئها، روح ظنت يومًا أن نيل الشهادة صعب المنال.

نجا السيد جمال ليكون دليلًا فيما بعد أن ما صوّرته الكاميرا من لحظات يثبت بأدلة غطتها الدماء أن إسرائيل متعطشة للفوضى وليست باحثة عن حق، لكن لم يكن الإعلام هذه المرة بقوة إنهاء حرب أو وقف مهزلة، وإنما فقط لإثارة بعض الجدل والبلبلة.

انتشر الفيديو يومها على القنوات الفضائية في الأخبار المسائية، وسبّب جدلًا واسعًا في الكثير من الدول خاصة الدول العربية، حيث أثار الفيديو حفيظة الكثيرين من المصريين، ومن بينهم ثلاثة أصدقاء يجلسون على مقهى في حي سيدي جابر بالإسكندرية.. أسامة، أمير وخالد.

أمسك أسامة، أكبرهم سنًا، بكوب الشاي أمامه ثم قذف به إلى الأرض وقال: "لقد سئمت من هؤلاء الحمقى الذين يقتلون الأبرياء كل يوم بلا سبب، هل أبدلوا قلوبهم حجارة أم ماذا؟! يقتلون طفلًا لا حول له ولا قوة بجوار والده العاجز عن جبّ الرصاص عنه أو عن نفسه!".

رد خالد: "أين جمعيات حقوق الإنسان من هذا؟!".

فصحح أمير، أصغرهم سنًا: "بل أين العرب من هذا؟!".

أجاب أسامة: "مشاهدة فيديو كهذا يثير روح التضحية لدينا نحن الشباب، وأنا على أتم الاستعداد للانضمام إلى الفلسطينيين في الدفاع عن أرضهم، ولكن هل الأمر بهذه السهولة؟ جل ما يمكننا فعله هو حمل العلم الفلسطيني في مظاهرة ضد إسرائيل أمام سفارتها هنا في مصر".

ابتسم وأكمل: "وهل هذا أيضًا بسهولة كلامي؟ إذن ليس الموضوع أين العرب، بل أين حكام العرب؟".

قال أمير بسخرية: "ستنقل نشرات الأخبار الآن أن الرئيس كذا يستنكر ما حدث في حين أنه يصافح رؤساء إسرائيل ويهنئهم بعيد استقلالهم ويبارك لهم ذلك، وهكذا هم حكام العرب كلام معسول وألفاظ قوية دون أفعال مرضية".

وجه أسامة نظره إلى أمير، ثم قال: "لا تقل هذا يا عزيزي، ليس كل الحكام هكذا".

- "ماذا تقصد؟ هل فعل العرب شيئًا حيال هذا الأمر؟".

- "نعم، فعل العرب الكثير، في أول الأمر لم يذعنوا لدخول اليهود فلسطين، ثم تحول الأمر إلى مناوشات ثم حرب".

تعجب خالد ثم قال: "حرب! أي حرب؟!".

أردف أسامة: "حرب فلسطين، حيث كشر العرب عن أنيابهم لعدة شهور".

تساءل أمير: "وماذا حدث بعد الشهور هذه؟".

رد أسامة بسرعة: "تساقطت أنيابهم".

ضحك أمير، بينما اكتفى خالد بالابتسام، رأى أسامة علامات الحيرة تكسو وجه خالد فاستطرد: "تضايقت الدول العربية جدًّا عندما أصدرت اللجنة العامة بالأمم المتحدة قرارًا بتقسيم فلسطين إلى قطعتين، قطعة إسرائيلية من حق اليهود إقامة مستعمرات بها، وقطعة عربية للفلسطينيين، قرار سيتم تداوله بعد فترة تحت عنوان

"حل الدولتين"، لم يجد العرب بدًا من السكوت وقتها فشنت كلًا من مصر والسعودية.. امممم.. والأردن والعراق وسوريا ولبنان هجومًا عسكريًّا على الميليشيات اليهودية لإخراجهم من أرض فلسطين التي اتخذوها وطنًا غير مشروع لهم، وبتسلسل معروف ودون تكهن أعلن المجلس اليهودي الصهيوني قيام دولة إسرائيل بعد تشاوره مع أناس من الإدارة الأمريكية وقتها، فالولايات المتحدة الأمريكية كانت وما زالت منبع القوة الإسرائيلية، حيث كانت زمام الأمور ب أمريكا في أيادي اليهود، وبالتالي أي إجراء سيُتخذ ضد العرب وخاصة فلسطين سيلقى ترحيبًا من أمريكا والأمم المتحدة نفسها، الصهيونية يا أصدقائي قوة لا يُستهان بها".

حك أمير مؤخرة رأسه، ثم قال: "وماذا حدث بعد ذلك؟".

فأكمل أسامة: "بعدما أعلن المجلس قيام إسرائيل لم تُحدد حدود إسرائيل المقدّرة بالنصف كما أعلنت الأمم المتحدة من قبل، بل تركوا الأمر مجهولًا".

ضرب خالد بيده سطح المنضدة أمامهم، ثم قال: "هذا دليل على أن نواياهم من أول وهلة كانت أن يغتنموا باقي فلسطين وليس فقط النصف الذي أعلنته الأمم المتحدة، إنها حرب من البداية".

أُعجب أسامة برد خالد فابتسم وقال: "ها نحن ننتقل من قضية هل الأرض حق أم لا، إلى مسألة كم يستحقون منها، ألم أُخبرك أنه لا

يُستهان بهم؟! كان إعلان قيام الدولة بمثابة شرارة أوقدت الغضب في قلوب بعض الدول العربية، أشعلت غضبًا من نوع خاص نفتقده هذه الأيام، شاركت كل دولة بعدد من جنودها، اكتمل الجيش العربي وقارب نحو ثلاثة وعشرين ألف مقاتل في البداية فقط".

أشار بيده إلى التلفاز الذي عرض علم العراق وبدأ في سرد آخر مستجداتها: "بلغ الجيش العراقي بمفرده أكثر من هذا، فيما تجاوزت أعداد الجنود في الميليشيات اليهودية ضعف الجيش العربي بل وبعد مرور أسبوع فقط ازداد عدد مقاتلي الميليشيات اليهودية إلى ما يزيد عن المائة ألف مقاتل، أرى كلمة (كيف) في عيونكم".

اختلس رشفة شاي من كوب خالد، وأكمل: "سمحت إسرائيل بتهجير الفلاشات، وهم أناس من أصل شبه يهودي".

نظر أسامة إلى خالد، ثم قال: "وهذا أيضًا دليل آخر على أنها حرب من البداية وليس استرداد أرض كما يقولون، إذ أن أكثر اليهود لا يؤمنون بفكرة أن إسرائيل أرض لهم بل ويستنكرون الأفعال الإجرامية التي يرتكبها الاحتلال ضد أصحاب الأرض، ولم تجد الحكومة الإسرائيلية حلًا سوى ترحيل كل من يود الذهاب إلى فلسطين حتى ولو كان غير يهودي، في البداية كانت الأمور بيد الجيش العربي الذي حقق نجاحات باهرة، خاصة الجيش الأردني الذي تمكن من طرد اليهود من حي تابع لهم بالقدس ثم قام بتلقينهم درسًا في معركة باب الواد، حيث اعترف بعدها مؤسس إسرائيل نفسها ديفيد بن غوريون بأن إسرائيل لم تتمكن وقتها من مجابهة الجيش الأردني لإتقانه الخطط التكتيكية

ولتنظيمه مما أدى إلى خسارة إسرائيل في هذه المعركة ضعفي القتلى في الحرب".

أشار إلى علم العراق الذي يقبع وسط قماشة مهترئة مربعة بشكل تي شيرت يرتديه طفل مد يده إليهم سائلًا بعض القروش.

- "العراق يا أصدقائي بجمال هذا الطفل، ولكن تحفّها الفتن وتدور دوران خيوط هذا القماش حول هذا الجسد الغض".

نما صوته قليلًا.

- "وعلى جانب آخر كان يُحسن الجيش اللبناني صنعًا حيث أحكم سيطرته على قريتين قرب الحدود اللبنانية، وباقي الجيوش كانت على نفس وتيرة الانتصار إلى أن تدّخل مجلس الأمن وفرض حظرًا ومنع تزويد الأسلحة، وحدث بعد ذلك ما تفعله إسرائيل دومًا وما سئمت من قوله، تخرق القوانين ولا تُعاقب ويتجاهل أصحاب القرار ما يحدث كأن العمى أصابهم، التزمت جميع الأطراف بالحظر وعدم تزويد الأسلحة إلا إنها _لعن الله دولتها الزائفة وقادتها بني القردة والخنازير_ لم تنصت للقانون وبدأت في تعويض خسائرها وتزويد ميليشياتها بجنود وأسلحة وطائرات لا حصر لها، وعندما انتهت الهدنة آلت زمام الأمور إليها وبدأت في إلحاق الخسائر بالجيوش العربية التي وافقت فيما بعد على هدنة ثانية كانت بمثابة دليل إخفاق".

زفر أمير، ثم قال: "يا إلهي! كم أنا جاهل! لقد ظننت أن العرب لم يتدخلوا يومًا في هذه القضية".

رد أسامة بحكمة وهدوء: "لا يا صديقي، لقد خسرنا الحرب بسبب تعديات إسرائيل الصريحة على ما ينصه القانون ولم نستطع بعدها مجابهة إسرائيل خاصة بعد توصية مجلس الأمن بقبول إسرائيل كدولة وإقرار الجمعية العامة بهذه التوصية، كما خسرنا بسبب الأسلحة الفاسدة التي موّن الملك فاروق بها الجيش المصري حيث كان يتاجر في خردة الحرب العالمية وقتها، ملك للخردة يمشي فاسدًا".

تساءل خالد: "إلى متى ستستمر إسرائيل في ممارساتها البشعة؟ وإلى متى سيستمر العالم في قبول الإهانة والصمت؟".

نظر كلًا من أمير وأسامة إلى خالد دون رد دليلًا على عدم استطاعة أحد على تخمين إجابة لهذا السؤال.

* * *

- "ما الذي أتى بهذا اليهودي هنا؟!".
- "أجئت لتشمت به أم ماذا؟!".
- "ارحل من هنا أيها الخنزير".

كلها تساؤلات وجمل وُجهت إلى الرجل الذي دلف إلى المستشفى على حين غفلة، والذي وقف بهدوء عند الاستقبال ووجه سؤالًا إلى إحدى العاملات هناك بلغة عربية ركيكة.

- "أين جمال الدرة؟".

ردت بامتعاض: "في الطابق الثاني".

ذهب إلى الطابق الثاني وأخذ يتجاوز الغرفة تلو الأخرى بحثًا عن جريح لازم السرير لصعوبة بالغة في تحريك أطرافه التي أصابها الرصاص

إلى أن وصل إلى غرفته، انتظر قليلًا بالخارج حتى يُنهي المراسلون لقاءهم مع السيد جمال، ثم توجه إلى داخل الغرفة بعد رحليهم وجلس بجواره.

- "كيف حالك يا جمال؟".

- "بخير والحمد لربي".

وضع موشيه نظره إلى الأرض، ثم قال: "كُلنا نأسف لما حدث لمحمد ابنك".

احتد جمال: "كلكم! ما أنتم إلا مجرد قتلة".

- "ولكن...".

- "لا تحاول تبرير ما حدث يا سيد موشيه، فالله والمصور وأنا نعلم أن قوات الاحتلال لم تتوقف عن إطلاق النار إلا بعد أن أردت ولدي قتيلًا وظنت أني لحقت به".

- "أنا لا أُخفيك سرًا أن ما فعله الجنود بكما عمل غير إنساني ولا يصنف إلا قتلًا للأبرياء دون سبب ودون ذنب، وأنا أرجو بالنيابة عن جميع اليهود الذين تأثروا بما حدث لولدك وبالنيابة عن كل قلب جرحته الأفعال المشينة التي يرتكبها الاحتلال ضدكم وكل عقل يستنكر

ما حدث أن توافق على طلبي لنقلك لمستشفى إسرائيلي تتلقى فيه كافة أنواع العلاج، ولا تقلق من التكاليف سأتدبر أمرها".

- "أُفضِّل أن أموت هنا دون قبول طلبك. فالله شافني بإذنه لا بعلاجكم، كما أن الأفعال المشينة هذه أنت وأمثالك السبب في نشوبها، صحيح أنك لا تحمل السلاح ضدنا، لكن يحمله غيرك لتقوم أنت بمهمة أكبر من الرصاص والدبابات والقنابل والموت نفسه.. تتعايش، فكرة وجودك في أرض فلسطين كيهودي يطلب الحماية من الإدارة الإسرائيلية هي المقوي لما يحدث لنا. أنت أشد علينا من حامل السلاح فتوقف عن لعب دور البريء.. البريء الساذج".

عندها وقف موشيه وبصره ما زال يجول في الأسفل ولا يستطيع توجيهه إلى السيد جمال، وقال: "حسنًا، أنا أقدّر ما تشعر به الآن، لكن إن احتجت مساعدتي فلا تتردد في إخباري".

- "الله في عوني ولا حاجة لأحد سواه".

توجه إلى الباب ثم تنفس بعمق في محاولة بائسة ليتناسى هذه الردود وتوحش النظرات التي ستحيط به ريثما يخرج من المستشفى ويختفي عن الأنظار، أغلق السيد جمال عينيه بعد أن تأكد من خروجه وحاول الاسترخاء بعد مجادلة هي أقرب للمشاجرة رغم أنها لم تستمر طويلًا.

❊ ❊ ❊

الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام 2001

سيدي جابر، الإسكندرية

- "ماذا تشاهدين يا جدتي؟ جدتيي!".

- "أسمعك بوضوح يا بني، أنا فقط متأثرة بهؤلاء المصابين والأشلاء ونحيب الأهالي على ذويهم".

- "أين هذا الانفجار؟".

- "بقعة ما في أمريكا، الآلاف لقوا حتفهم والمصابون لم يُحصوا بعد، لقد ارتطمت طائرة بمبنى التجارة العالمي".

همس أمير: "لا يهم".

- "ما الذي لا يهم؟ ولمَ تهمس هكذا؟!".

- "آااه، كيف سمعتِني؟!".

- "يا بني ديننا ينهي عن قتل النفس، ما ذنب هؤلاء الأمهات والآباء والإخوة الذين يبكون دمًا بدلًا من الدموع؟!".

- "إنهم كفار يا جدتي؛ لهذا قلت لا يهم".

- "ومَن أنت لتحكم على شخص بالكفر وعدمه؟ أنت لا تقلّ شيئًا عن أولئك الإرهابيين إذن".

- "بل أنا لا شيء يا جدتي.. لا شيء".

- "هذا ما يحدث في كل حوار بيننا، أجدني أتحدث إلى نفسي كأنك لست طرفًا في الحوار، يا عديم الفائدة أحثك دائمًا على الذهاب إلى غرفتي لعل وعسى أن يشد انتباهك أحد الكتب في مكتبتي، مكتبة متواضعة بكتب عريقة ورف آيل للسقوط، لا تدري كم من الجنيهات تلو القروش ادّخرت لاقتنائها، اقرأ يا بني! اقرأ لتنير عقلك وتجدد فكرك".

- "قصة اليوم والأمس! تحثينني على قراءة الكتب والتثقف في حين تأمل أمي فقط أن أُنهي دراستي بأقل الخسائر الممكنة".

ابتسمت جدته، ثم سألت: "وماذا أنت بفاعل؟".

- "سأتناول العشاء، ثم سأذهب لأصدقائي كالعادة أقضي معهم بعض الوقت".

- "بعض الوقت!".

- "أعدكِ أنني لن أتأخر هذه المرة، سأتركك الآن لتتابعي الأخبار ولترتاحي مني قليلًا".

كان أمير في منتصف العقد الثاني من عمره وقتها، معروف عنه أنه متواضع وشهم وفكاهي قليلًا، تربطه علاقة صداقة بخالد وأسامة منذ الصغر، يسكنون بنفس الحي، نعم.. صداقة فطرية قديمة لأنه لم يجد غيرهما كمئات العلاقات.

قضى يومًا صعبًا في المدرسة هذا اليوم، فقد كان يومًا مملًا جدًّا مليئًا بالحصص عديمة الفائدة من وجهة نظره، ككثيرين من الطلاب يسخط على نظام التعليم وهو قلما يتصفح كتابًا، انتظر قليلًا لتحضر والدته العشاء، لم ير والده الأستاذ محمد منذ أيام؛ فهو مشغول دائمًا بين المدرسة والفصول الخصوصية ليعول أسرته المتماسكة بهشاشة لا تقبل المخاطرة، تناول مع جدته ووالدته العشاء وذهب مسرعًا لمقابلتهما في المقهى كما وعدهما منذ سويعات قليلة.

كان أسامة يجلس أمام المقهى في هدوء كعادته، هدوء لا يتناسب مع بنيانه القوي، يحتسي كوبًا من الشاي مماثلًا لذاك الذي شفا غليله عندما قذفه أرضًا اليوم الماضي كأنما قتل به خنزيرًا إسرائيليًّا أو كلبًا صهيونيًّا، غالبًا لا يتحدث لأحد بحرارة وبصدق إلا لهما، يحلو الكلام دائمًا معهما، ولا يدري بعد لمَ، وكما جرت العادة يتسامرون يوميًّا حتى منتصف الليل، مرت نصف ساعة وهو على نفس الحال منتظرًا يائسًا من تلفاز المقهى الذي لم يكف لحظة واحدة عن عرض آخر أخبار الواقعة التي هزت أرجاء أمريكا.

فجأة دلف خالد قائلًا: "فيم تفكر يا صاح؟".

رد أسامة: "لا شيء، لقد سئمت وكنت على وشك الذهاب".

- "ذهاب! وهل يحلو المجلس دون كآبتك وسخطك على كل شيء؟".

- "وهل يعجبك أنت تأخركما عليّ كل مرة هكذا؟ ولكن دعك فلا حياة لمن أنادي، أين أمير؟".

- "لقد وجدته يتحدث إلى فتاة أحلامه وأنا قادم فلم أشأ أن أعكر صفوهما".

- "وهل تستطيع؟". قالها أمير وهو يجلس ضاحكًا.

رد خالد: "لقد كانت تتحدث وأنت منصت لها جدًا، لعلها أخبرتك أنها معجبة بي".

علت ضحكاتهم جميعًا فلفتوا انتباه المارة، ثم رد أمير: "لا، لقد أخبرتني أنها معجبة بأسامة".

ابتسم وأمسك بطوق قميصه في تكبر، وقال: "وأنا أيضًا معجب بـ...".

قاطع أمير أسامة ضاحكًا، وقال: "معجبة بأسامة بن لادن لتمكنه من تلقين الولايات المتحدة درسًا لن تنساه، وليس أنت يا أخرق".

ضحك خالد بصوت عالٍ فيما رجع أسامة بظهره إلى الخلف قائلًا: "ومن أخبرها أن بن لادن هو المنفذ لهذه الواقعة؟".

- "لقد أخبرتني أن أمريكا الآن توجه أصابع الاتهام إلى تنظيم القاعدة".

- "كيف ولم يتبن أي شخص ينتمي للتنظيم مسئوليته عن الحادث حتى الآن؟! صدقني لو كانت فعلتهم لما تأخروا في بسط كاميراتهم لتسجل نصرهم،

بيد أن حلف شمال الأطلسي قد أعلن أن أي هجوم على أي دولة عضو في الحلف هو بمثابة هجوم على الحلف بأكمله".

تساءل أمير: "أتقصد أن أسامة بن لادن لن يجرؤ على تبني هذا الحادث؟".

- "إذا افترضنا أنه مرتكب الحادث فعلًا".

قال خالد بنبرة حزينة وهو ينظر إلى الجثث في التلفاز: "هل مات الكثيرون؟".

رد أسامة: "أكثر من ثلاثة آلاف حالة وفاة و24 مفقودًا، بالإضافة إلى آلاف الجرحى والمصابين".

- "وكيف حدث هذا؟".

- "حسب وصف الحكومة الأمريكية، قام 19 شخصًا على صلة بتنظيم القاعدة باختطاف طائرات نقل مدني تجاري، ارتطمت الطائرة الأولى بالبرج الشمالي من مركز التجارة العالمي صباحًا، تلتها الطائرة الثانية بربع ساعة تقريبًا، عند الساعة التاسعة، لكن اصطدمت هذه بالبرج الجنوبي من المركز،

واصطدمت الثالثة بمبنى البنتاغون بعد الطائرة الثانية بنصف ساعة تقريبًا، ويقال إنه كان هناك طائرة رابعة فشلت في هدفها وتحطّمت قبل الوصول، ويقال إن تنينًا كان سيهاجم هوليوود بعدها

إلا إنه غيَّر رأيه لأنهم لم ينتهوا بعد من تصوير أحد الأفلام التي ينتظرها بشدة!".

ابتسموا، ثم علق أمير: "لا أعتقد أن الولايات المتحدة ستقف مكتوفة الأيدي تجاه هذه الواقعة".

سئم خالد من هذا الحديث عديم الجدوى، وكيف لا يسأم؟ يستمع في وقت فراغه إلى الموسيقى الغربية، "ما الذي جاء بي إلى هنا؟". حديث لا طعم له كهذا سينسيه الموسيقى وآلاتها والغرب وحلمه للسفر إليه، فضّل أن يغيّر مجرى الحديث إلى عشر سنوات مضت، وقتما كانوا يلعبون ويهرعون خلسة إلى البحر، شاطئ إسكندرية الساحر، ظل وجهتهم صيفًا وشتاءً، إلى أن تعلّق كل منهم بشيء لهاه عن هذا المكان الذي لم يستطع كاتب حتى الآن أن يصف بداعته وجماله، لا يستطيع قلم أن يصف ما يوحي به لون المياه من جمال، ما أروع شكلها عندما تتداخل مع الصخور عند الشاطئ! يحوي صوت التداخل نوعًا من الخمر لا يُسكر العقل فقط بل الفؤاد والعين أيضًا.

مرت ساعات وهم يسيرون بمخيلاتهم بعيدًا في السماء يتذكرون أيام الصبا، اقترب منتصف الليل فعاود الأصدقاء ديارهم بعدما تواعدوا أن يذهبوا إلى هناك في القريب العاجل.

* * *

- "من الطارق؟".
- "أنا أمير يا سيدة صفاء".

- "انتظر يا بني أنا قادمة، صحيح أنني زوجة عمك لكن أود أن تدعوني بعمتي فكم أحب أن أسمعها منك".

- "السلام عليكم، كيف حالك يا عمتي؟".

- "مرحبًا بني، التو فقط تذكرت أن لك أقارب هنا؟!".

- "لم تزورينا منذ فترة!".

- "لقد كنت مجهدة قليلًا، كما تعلم فقد أصبحت مديرة المدرسة وقد تراكمت المسئوليات كثيرًا".

- "كان الله في عونك، أين مي؟".

خرجت مي فجأة من غرفتها مرحبة بأمير.

- "مرحبًا يا أمير".

- "مرحبًا يا مي، كيف حالك؟".

- "بخير الحمد لله، وأنت كيف حالك؟".

- "بخير طالما أنتم بخير".

بعد دقائق من حديث عقيم من نوع مرحبًا وأهلًا وكيف حالك وإلى أين آمالك، ابتسمت مي في خجل، قامت والدتها لتحضر الشاي وتتركهما كالعادة

يتنبئان بما ستؤول إليه الأمور، دائمًا تحب تحليل الأحداث وتسخط كثيرًا على قرارات الحكومة، فتاة مشاغبة من طراز هؤلاء الفتيات المتمردات اللاتي يرتدين وشاحًا على أكتافهن كأنهن في طريقهن

لتحرير القدس من الصهيونية ومسمياتها، تصغره بسنة لكنها بعقل أكثر رصانة منه، تعيش مع والدتها في منزل قريب جدًّا من منزل عمها محمد والد أمير، يحب الاستماع لها لأنها مقنعة جدًّا ودائمًا تثبت حقيقة الشيء بدليل قاطع، يحب فيها روحها التي تسعى دائمًا إلى الحرية وعقلها الذي لا يكف عن التفكير بإيجابية.

- "أين كنت يا أمير لم أرك منذ شهور، لقد زارنا والدك ووالدتك كثيرًا، لمَ لم تأتِ معهما؟".

- "لا بد أنهما كانا يأتيان ويذهبان وأنا بالخارج فلم يخبراني أبدًا، بالإضافة إلى أنكِ كذبتِ عليّ في آخر مرة رأيتكِ فيها، لقد أخبرتِني أن أسامة بن لادن هو منفذ الهجوم".

- "لا لم أكذب عليك، هذا ما تشير إليه كل الأخبار".

- "أقنعني صديقي أسامة أنه ليس للقاعدة يد في الموضوع".

- "لا أحد يعلم حتى الآن أين الحقيقة، لكني أدين وبشدة مثل هذا الفعل الإجرامي المزهق للأرواح البريئة".

- "ولمَ لا تستنكرين ما يحدث الآن في أفغانستان؟!".

- "مهلًا! مهلًا! لا تسئ الحكم عليّ، لقد مضضت من هول ما رأيت من سلسلة الانفجارات التي تلت بعضها على أرض أفغانستان، كان الله في عون الشعب والجهاديين الذين يقاومون هذا".

- "الآن جهاديون! ألم تنعتيهم بالإرهابيين منذ قليل؟!".

- "الوضع اختلف، لقد دخل العدو أرضك، إذن كل ما عليك فعله أن تقاوم بكل ما أوتيت من قوة وبكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، لن يهم المسمى وقتها أهو مقاومة أم جهاد أم إرهاب".

- "نعم، أنتِ على حق، أنا أفضِّل أن يجتمع العرب على قلب رجل واحد للدفاع عن القدس وإساءة العدو الإسرائيلي له".

- "ليس الأمر بهذه السهولة، من يقف بوجه إسرائيل يجد نفسه يحارب الكثير من الأطراف الخفية، فقد اتفق كل منهم على نشر الرعب والإرهاب والفساد في العالم بنشرهم للأفكار الرأسمالية والتخريبية من قبل وبنشرهم للإرهاب الآن، فهم لا يريدون أن تتجمع الأمة العربية على كلمة واحدة مهما حدث".

- "يبدو أن هناك قوة خفية تدير هذا العالم!".

- "لو سمعت إحدى الجماعات المتطرفة هذه الجملة (قوة تدير العالم) وعرف أنك تقصد بها بشرًا لاتهمك بالرِدة ولقام بدفنك حيًّا".

- "لقد أسأتِ فهمي، أنا أقصد...".

- "أعرف ما ترمي إليه يا ابن عم، أنت تقصد أنه لا يستطيع أحد التدخل في سياسات إسرائيل أو أمريكا أو يهيمن على العالم مثلهما".

- "لكن ما دافع تقوية أمريكا لشوكة إسرائيل في فلسطين؟".

- "الأمر أكبر من هذا وأكثر تعقيدًا لكنه مشوق، ها قد جاءت أمي بالشاي سنأخذه ونخرج إلى الشرفة، ألم تشتق لنسمة الهواء العليل التي تمر بشرفتنا؟".

- "شكرًا يا عمتي، كم اشتقت لكوب شاي من يدك تعلوه ورقة من نبات النعناع!".

- "العفو يا بني".

قالت مي: "سنخرج إلى الشرفة يا أمي".

- "حسنًا".

- "اجلس يا أمير لأقص عليك ما لن تسمعه من أحد غيري إلا من رحم ربي".

- "تحدثي بهدوء فكلي آذان صاغية".

بدأت في الكلام بسرعة: "في الخامس من نيسان لعام 1917 ذهب آرثر جيمس بلفور إلى الولايات المتحدة ببشرى إلى أصحاب المصارف الأمريكية أن بريطانيا وافقت أخيرًا على تبني الصهيونية في مقابل أن تنزل القوات الأمريكية لساحة المعركة في جانب الحلفاء".

- "أرجوكِ ترجمي ما قلتِه للتو".

ابتسمت وأردفت: "لقد كانت بريطانيا تعلم أنه لا يمكنها خوض هذه الحرب حتى النهاية إلا بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية، فذهب آرثر بلفور وزير خارجية بريطانيا للتفاوض مع أصحاب البنوك، لا أخفي عليك أن أصحاب البنوك هؤلاء هم يهود ويتحكمون في الولايات المتحدة بنفوذ يفوق نفوذ الرئيس نفسه، فقد كانت لهم

القدرة على الإطاحة بأي رئيس يعارض سياساتهم كما فعلوا بإبراهام لينكولن وغيره".

- "أتقصدين الحرب العالمية الأولى؟".

- "بالتأكيد".

- "إذن الصهيونية هي...".

- "هي إيمان اليهود بأن فلسطين أرضهم ولهم الحق في دخولها، ولأكون صادقة معك لا يؤمن كل اليهود بهذه الأحقية، فاليهود أسباط وفئات كثيرة، الصهيونية هي أحقر فئات الماسونية، وهم الآن يسكنون فلسطين، ويحاول بنو صهيون الآن هدم المسجد الأقصى وبناء حلمهم العبثي وهو الهيكل المزعوم".

- "فهمت الآن لماذا يسمون وعد بلفور هذا وعد من لا يملك لمن لا يستحق".

- "أأدركت لمَ تغتصب الصهيونية فلسطين يومًا بعد يوم ولا يستطيع أحد أن ينازعها فيما تفعل؟ لأن الموضوع مبني على مصالح تتعلق بما لا يستطيع أحد السيطرة عليه أو إدانته، بالإضافة إلى أن أمريكا تدعم إسرائيل يوميًّا بملايين الدولارات، أوراق خضراء تصنع المعجزات وتلبي الملذات وتحرك القارات إن أوصى مالكها بهذا".

- "أتدرين يا مي.. هنا تكمن مشكلتي مع الإعلام فهم ينعتون من يدافع عن نفسه وأرضه بالإرهابي ويسمون المعتدي صاحب حق".

- "بمناسبة الإعلام سأخبرك شيئًا الآن لن تصدقه".

- "ماذا؟".

- "لا يجهل أحد أن لدى الولايات المتحدة جيشًا قويًا لا يُهزم، لهذا تستمتع بصنع وحش وتتركه لتقوي شوكته قليلًا ثم تمارس هوايتها الفاحشة المفضلة.. الحرب!".

- "ماذا تقصدين؟".

- "أقصد أن علاقة أمريكا بدعم وصناعة الإرهاب تعود إلى زمن بعيد حينما احتلت قوات الاتحاد السوفيتي أفغانستان، حينها دقت طبول حرب باردة تخللها تجنيد الولايات المتحدة للتيارات الإسلامية من السعودية والجزائر ومصر تحت مسمى الجهاد ضد الشيوعية".

أبدى أمير تعجبه: "أمريكا تدعم الإسلام؟!".

- "للحرب قوانين أخرى، ولكن ليس هذا ما يدعو للتعجب".

- "أهناك المزيد؟".

- "أتدري أن الجهاد ضد الشيوعية قديمًا هو إرهاب اليوم في عيون أمريكا؟".

- "مهلًا! ماذا تقصدين؟! أتقصدين أن الجماعات الإسلامية التي مُولت قديمًا من الولايات المتحدة هي الآن طالبان والقاعدة؟".

- "بالطبع، هذا هو الوتر الذي تلعب عليه الولايات المتحدة والإعلام المضلل في العالم بأثره، تغيير المصطلح وإيقاع النغمة فيما يتماشى مع قوانين السلطة المهيمنة، وكالعادة لا يجرؤ أحد على استنكار هذا علنًا، أنا أشك أن أحدًا يفهم ما يدور حقًا".

- "ألا يكفي أمريكا ما فعلته في فيتنام وما تفعله الآن في أفغانستان؟".

- "لا، لا يكفيها، أمريكا لا تكتفي بشيء، أنا فقط أتساءل أي فضيحة وهمجية سيرتكبونها في أفغانستان تتسبب في قلب الطاولة ضدهم كما حدث في فيتنام من قبل؟".

- "أتقصدين بفضيحة فيتنام الفتاة العارية التي كانت عنصرًا قويًا في إيقاف الحرب في فيتنام؟".

- "لا، لم تكن عنصرًا قويًا".

- "ماذا؟!".

- "أقصد أن كان هناك عنصر آخر بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير وفضحت ممارسات الولايات المتحدة الوحشية في فيتنام".

تساءل أمير: "أي فضيحة؟!".

فأجابت مي: "أوراق البنتاغون".

ظهرت الحيرة على وجهه، فأردف: "لم أسمع بهذا من قبل أيضًا".

- "بالطبع لم تسمع، فالأمر يعود إلى عشرات السنين".

- "وما الغريب في هذا؟! أنا أعلم أشياء حدثت منذ مئات السنين".

- "لأن التلفاز يعرضها، ولكن لا يعرض إلا أشياء معينة غرضها تغييب العقول، إلا بعض الحقائق التي لا يمكن تحاشيها وليس كل الحقائق، فعلى الرغم من أن أكثر الأمريكيين يكرهون الخداع وأن تتلاعب الحكومة بأفكارهم إلا أن جميع رؤساء أمريكا لا يجدون طريقة لتحقيق خططهم الدامية سوى الخداع والتمويه".

- "وما علاقة ما تقولينه هذا بأوراق البنتاغون؟".

- "العلاقة السببية: لأن لو لم يكن يكره الأمريكيون الخداع والتضليل ما أحدثت أوراق البنتاغون فرقًا، لأنه لما نشرت الصحافة الأمريكية أوراق البنتاغون ضرب الذعر قلوب العقلاء الأمريكيين، وانتشرت الخيبة في أنحاء الإدارة الأمريكية، حيث كانت تحوي هذه الأوراق أسرار الحرب على أرض فيتنام، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لم تأت في سلام كما كانت تزعم".

- "ما الذي حدث إذن؟".

- "دمرت أمريكا أراضي ومنازل ما يقرب من 39% من سكان فيتنام الجنوبية وشيدت بدلًا منها معسكرات اعتقال وأجبرتهم على العيش فيها، وكلما يعارض الفلاحون هذا التدخل في حرياتهم يوقع بهم الجنود أشد أنواع التعذيب.. التعذيب الذي يجعل من الموت حلمًا صعب المنال".

- "ولِمَ كل هذا؟".

- "لمنع جبهة التحرير الوطنية من التأثير على الفلاحين، أي لمنع العقلاء من إفشاء الحقيقة، الأمر معقد يا أمير ولكن سأذهب لأُحضر لك كتابًا شيّقًا يساعدك على معرفة الكثير".

- "أنتِ أيضًا تحثينني على القراءة، يبدو أن القراءة كنز لا يفنى!".

ضحكت مي ضحكة سلبت عقله وردت: "أظن أنها القناعة وليست القراءة"، ثم دلفت إلى الداخل.

رفع أمير رأسه للسماء متسائلًا: "تُرى ماذا ستفعل أمريكا في أفغانستان بعد كل ما فعلته؟".

عادت إلى الشرفة وأعطته الكتاب، أُعجب به جدًّا أو هكذا اصطنع، أخبرها أنه سينتهي منه في أقرب وقت ممكن، استأذن بالانصراف فقد تأخر الوقت ثم دلف إلى الداخل فوجد عمته تحيك قطعة من القماش بألوان علم مصر كما تفعل دائمًا فأبدى إعجابه بها ثم همّ بالانصراف.

- "سأذهب الآن يا عمتي، أرجو أن تزورونا في أقرب وقت".
- "إن شاء الله يا بني، أقرأ الجميع السلام وبلغهم تحياتي".

خرج من المنزل مبتسمًا فرحًا بالكتاب، كان سيفرح أكثر لو أنه قالب شيكولاتة من نوع "ميلكا".

منزل عمته يبعد عن منزله فقط بشارعين، تمنى لو كان يبعد أكثر فقد كان مستمتعًا جدًّا بالمشي في هذا الليل الساحر ناظرًا للقمر تحيطه النجوم من جميع الاتجاهات كأنما تقيه هجمات الفضائيين جميعها مما يضفي للسماء رونقًا وجمالًا خاصًا، ويرسل لبقاع الأرض خيوطًا فضية يهتدي بها من ضلّ".

❋ ❋ ❋

ساعة بعدها يوم، مرت السنوات بسرعة، وكلما تحدث مصيبة عالمية أو كارثة اقتصادية يجتمع أمير بمي ليناقشا ما حدث كمحللين سياسيين لا شغل لهما إلا هذا، كان ينتظر شغفًا من وقت لآخر لخبر تهتز له الأرجاء ليتسامر معها، كالمتوقع وبطريقة تقليدية أحبته أكثر من حبها للبحث عن الحقيقة، ولكن لم تخبره يومًا بحبها ولا تعرف ما الذي يمنعها.

تعمقت صداقة أمير بخالد كثيرًا في سنوات لم يتخللها يوم واحد دون رؤية بعضهما البعض إلا تلك الفترة التي قضى فيها خالد تجنيده في مديرية الأمن بالإسكندرية، كم شهد المقهى على مزاحهما المتواصل وهما يجلسان أمامه، في المقابل كانت تتسنى الفرصة ليوم أو يومين في

الأسبوع لأسامة ليشاركهما المزاح واللحظات السعيدة، فقد وجد وظيفة في مكتب محاماة وكانت تشغل معظم وقته بعدما تخرج من كلية الحقوق.

تخرجت مي من الكلية وتخرّج أمير أيضًا وأصبح كلا منهما جاهزًا لبدء حياته العملية أو هكذا يسمونها حتى لو لم تكن، وتواصل أمير مع خاله في تونس ويجهّزون الآن الأوراق اللازمة لسفره إلى هناك.

اتصل بصديقيه وطلب أن يقابلهما في المقهى وأخبرهما أنه يحمل أخبارًا سعيدة، تجمعوا على المقهى كما طلب منهما، هذا المكان المنقوش في مخيلاتهم، الحضن الذي طالما احتواهم، حيث أخلص الإنسان المصري القديم والحديث لبعض الكراسي الملتفة حول طاولة صغيرة فقط لأنها تبادله العطاء، لأنها تمنحه الألفة التي يفتقدها عند الكلام مع كثيرين من البشر، لا يتنازل هذا المصري عن مهد العطاء هذا.. المقهى!

سأل خالد أمير عن الأخبار السعيدة التي يحملها فرد: "عندما جمعنا هذا المقهى ثانية أدركت أنها ليست بالسعيدة".

تساءل أسامة: "ماذا بك يا أمير؟".

- "لقد انتهيت من أوراق السفر وسأغادر بعد أسبوع".

- "مبارك يا صاح، إنها أخبار سعيدة حقًا".

ابتسم ابتسامة مصطنعة ثم قال: "لمَ أنت سعيد كأنك تريد التخلص مني في أقرب وقت ممكن؟!".

- "لا يا صديقي، لا تقل هذا، فالله أعلم كم سأشتاق إليك، أنا فقط سعيد لأنك ستبدأ حياة جديدة".

قال خالد: "ستشتاقان لي أنا أيضًا".

فرد أسامة: "لكنك لم تنه الأوراق بعد يا خالد".

- "لكني سأنتهي منها في القريب العاجل إن شاء الله، أريد الالتحاق بإخوتي في أمريكا، وفي نفس الوقت لا تطاوعني نفسي أن أترككما".

- "سنة الحياة، يومًا ما ستتحمل مسئولية ويجب أن تعافر من أجلها، ولا يمكنك مطلقًا أن تتهرب منها، كل أفعالك وأقوالك مسئولية، كل ما أنتما بصدده الآن هو شيء كُتب لكما من قبل أن تُولدا بل من زمن بعيد سحيق إن صح التعبير".

وقف أمير فجأة قائلًا: "طالما أنني سأتحمل جميع المسئوليات فلا حرج من اختيار مسئولية تحلو لي".

رد خالد: "ماذا تقصد؟".

- "سأتصل بكما وأخبركما، لا تقلقا".

نادى خالد: "انتظر قليلًا، معي فيديو أريدك أن تراه".

- "غدًا إن شاء الله".

غادر باتجاه منزله مسرعًا، ولم يشرح لهما حتى سبب مغادرته، تركهما والدهشة تكسو وجهيهما.

نظر أسامة إلى خالد، ثم قال: "أي فيديو تتحدث عنه؟".

- "انظر واسمع".

استمع أسامة للفيديو، ثم قال: "يا الله! إنها فضيحة بكل المقاييس، أين هذا؟ أخبرني".

- "إنه في قسم شرطتنا".

- "احذف هذا الفيديو الآن لأنه سيتسبب لك بمشاكل كثيرة إن علم أحد من الشرطة أنه بحوزتك".

- "لا تقلق يا صديقي، لا تقلق".

- "هل شاهد أحد هذا الفيديو غيرنا؟".

- "لقد أريته لأختي وابنة خالتي فقط".

* * *

أمسك الأستاذ محمد والد أمير بالهاتف، ثم ضغط مجموعة من الأرقام وبدأ بعد ثوان حديث لا يدري لمَ العجلة فيه.

- "السلام عليكم".

- "عليكم السلام، مرحبًا أخي، كيف حالك؟ أتمنى أن تكون بخير".

- "مرحبا يا صفاء، بأفضل حال الحمد لله، أشعر بسعادة بالغة عندما تدعينني بأخيكِ، فعلى الرغم من أنكِ زوجة أخي رحمه الله إلا إنني أشعر بأنكِ أخت عزيزة لم تنجبها أمي".

- "هذا شعور متبادل".

- "نحن قادمون لزيارتكم غدًا إن شاء الله".

- "البيت بيتكم، لا داعي للاستئذان".

- "سنأتي قبل حلول المساء، فأنا لن أفرغ من عملي قبل العصر".

- "أخبرني ما الأمر".

- "لا تقلقي يا صفاء، إنه خير، كل الخير إن شاء الله".

- "أراك غدًا إذن".

- "إن شاء الله".

على الجهة الأخرى من الهاتف بعد مرور يوم.

- "ألم يخبرك يا أمي لمَ هم قادمون؟".

- "لا، لم يخبرني، انتظري كلها دقائق ونعرف، فهم على وشك الوصول".

- "ربما قادمون لزيارتنا لأن أمير سيسافر قريبًا، ولكن.. مهلًا علينا نحن فعل هذا وليس هم!".

- "لا أعلم لمَ أنتِ متوترة هكذا! فقط انتظ...".

قطع حديثهما طرقات على الباب فقالت السيدة صفاء: "ها قد وصلوا، افتحي الباب".

- "لا، افتحي أنتِ، سأذهب إلى غرفتي لأغير ملابسي".

ذهبت السيدة صفاء لتفتح الباب، دُهشت عندما رأت من بالباب، إنه الطبيب محمود ونجله المهندس عصام جيرانها، يسكنان في الطابق الثالث، فوقها مباشرة.

بادر الطبيب بالحديث: "عذرًا للمجيء دون سابق إنذار".

- "لا داعي، تفضلا".
- "كيف حالك يا سيدة صفاء؟".
- "بأفضل حال الحمد لله".
- "وكيف حال عروستنا الجميلة؟".

تعجبت السيدة صفاء من نبرة حديث السيد محمود الذي جلس يقول: "لمَ الدهشة يا سيدتي؟ لن أجد لابني عصام أفضل من ابنتك مي، ما رأيك؟".

- "لقد فاجأتني يا دكتور محمود، أنت تعلم أن...".

قاطعها قائلًا: "أعلم أنها أنهت دراستها الجامعية، وكذلك عصام، وهو معجب بها منذ زمن، ولكن فضّلت أن ينهيا دراستهما أولًا".

- "أنا موافقة طالما أنك صارحتني بكل شيء، ولن أجد لابنتي أفضل من عصام، ولكن...".

حينها خرجت مي من غرفتها بوجه عابس، وقالت: "لا، ستجدين يا أمي"، ثم عادت إلى غرفتها ثانية، وكأنها أطلقت الرصاص على قلب عصام ووجه والده.

توترت السيدة صفاء ثم تأسفت ودلفت إلى غرفة مي.

- "ماذا تقصدين؟ أجننتِ؟!".
- "يا أمي أنا...".

قاطعتها أمها: "أنتِ ستتزوجين عصام هذا في أقرب وقت ممكن، من يرفض شاب كهذا؟!".

- "كل هذا في دقيقتين! ما هذه المبالغة؟! أنا...".

- "اصمتي، سأخرج وأحاول أن أُصلح ما أفسدته".

رسمت ابتسامة على وجهها وخرجت تاركة خلفها مي تبكي بحرقة وصوت يكبته ألم في صدرها، كأن قلبها قد سُلب، أيُعقل أن ترتبط بهذه السرعة فتاة لم تذق طعم الإكراه يومًا برجل دق قلبها لغيره؟!

- "أتأسف جدًّا على ما بدر من مي".

- "ما خطبها يا سيدتي؟".

- "لا شيء يا عصام، إنها فقط متضايقة لأنكما لم تناقشا عمها في هذا الأمر أولًا".

- "لقد أردنا فقط أن نعرف رأيها قبل الرجوع إلى عمها".

- "لا عليك يا دكتور محمود فلقد أخبرني أنه قادم هو وأسرته لزيارتنا، لا تقلق".

دوى صوت الجرس عاليًا معلنًا وصول السيد محمد وعائلته.

فتحت الباب ورحبت بهم، وأصابتها دهشة عندما رأت صديقي أمير برفقته لا تقل عن دهشتهم برؤية الدكتور محمود وابنه عصام. تسرب الشك إلى صدر أمير وازدادت نبضات قلبه، في حين هدأّت مي من روعها ولملمت نفسها ومسحت خطي الدموع أسفل عينيها وهيأت

نفسها للخروج ومقابلة عمها. خرجت من غرفتها ورحبت بالضيوف، ثم بادلت والدة أمير وجدته بعض القُبل.

- "يا لها من فرصة سعيدة يا أستاذ محمد!".
- "أنا أسعد يا دكتور".
- "لقد كنت على وشك المجيء إليك لولا أن السيدة صفاء أخبرتني أنك قادم".
- "لمَ كنت ستأتيني؟".
- "لأُصلح غلطتي".
- "ماذا؟! غلطتك!".
- "نعم يا أستاذ محمد، لقد أخطأت عندما جئت لأطلب يد مي لابني عصام دون أن أناقشك أولًا فأنت في مقام والدها".

هوت عينا أمير إلى الأسفل؛ فقد تأكد من ذلك الشعور الذي انتابه منذ قليل، تبين حقيقة الشك الذي اقتحم صدره وتلاعب بعقله عند رؤيته عصام ووالده، فجأة توقف الزمن بالنسبة له، كل ما يسمعه الآن هو صرير أذنه وهمهمات بعيدة غير مفهومة حتى مشت على خده دمعة خفيفة أحست مي بخطاها فنظرت إليه وعندما رأت الوجوم على وجهه تنفست بعمق لتستجمع قواها، ثم قالت: "لست موافقة".

كانت هذه هي الجملة الوحيدة التي استطاع أن يميزها من بين الهمهمات البعيدة، ولم يصدق أذنيه.

نظرت أم مي إليها بصرامة، ثم قالت: "اذهبي إلى غرفتك الآن، الآن".

نظر الأستاذ محمد إلى السيدة صفاء بحزم، ثم وجه عينيه تلقاء مي قائلًا بشجاعة مبالغ فيها حد السذاجة: "لا تبكي، فوالله لن يجبرك أحد على شيء طالما

أنا على قيد الحياة".

رمق الدكتور محمود السيدة صفاء، ثم قال: "ماذا يعني هذا؟".

نظرت إلى الدموع في عين ابنتها والحزن على وجه أمير، ثم قالت بحشرجة صوت: "كما سمعت".

تشجع أمير في هذه اللحظة، ثم نظر إلى مي التي رمقته بهدوء إجابة منها على تساؤلات تدور بخاطره، فوجه نظره تجاه عصام، ثم أخبر عمته: "يبدو أنه من حسن حظ ضيوفك يا عمتي أن يشاركوني فرحتي اليوم، فقد قررت أن أرتبط بمي قبل أن أسافر".

تبسّم ثغر مي فأضاءت الدنيا في عين أمير، وقتها أحسّ فعلًا عصام ووالده أنهما أخطئا عندما قررا أن يتقدما لخطبتها دون إذن عمها، فقد كان سيرحمهما من هذا الموقف المحرج الذي سقطا فيه، رأى السيد محمود علامات القبول على وجه مي فبارك لها واعتذر عن سوء التفاهم الذي حدث ثم انصرف،

انتظر عصام قليلًا ريثما خرج والده ثم قام وهنأ أمير، حينها نظرت السيدة صفاء إلى مي التي بادلتها النظرة بخجل ثم ارتمت في حضنها.

احتضن عصام أمير بقوة، ثم همس في أذنه: "سأحزن كثيرًا إن لم تدعني إلى حفل الزفاف".

طلب عصام من أسامة أن يرافقه إلى الخارج فخرج وبادر بالحديث: "لم أكن أعلم أنك تود الارتباط بها وأنا آسف على سوء التفاهم هذا".

- "لا عليك يا صديقي لا عليك، ولا تقلق على طلبك من الارتباط بأختي فأنا موافق بل وسأقنع والدي أيضًا بالموافقة".

- "حقًا يا عصام؟".

- "نعم يا سيادة المحامي، أردت أن أخبرك ذلك فقط لكي لا تعتقد أني سآخذ هذه بتلك".

علت الزغاريد من الداخل معلنة ارتباط أمير بمي، ابتسم عصام ثم ربت على كتف أسامة ورحل، دخل أسامة المنزل ثم أغلق الباب خلفه حزينًا جدًّا على ما لاقاه عصام اليوم، لكن انفرجت أساريره عندما تذكر أنه وافق مبدئيًا على ارتباطه بأخته.

أحاطت السعادة بالجميع وبالأخص أسامة وخالد، انتشرت بعض الحركات البهلوانية والرقصات التي أضفت على الجو مرحًا وبهجة كأن لا شيء حدث للتو، كان سوء تفاهم سريع العلاج.

❋ ❋ ❋

الساعة 4 فجر نفس اليوم

12 / 2 / 2010

ضواحي مدينة غارداز، أفغانستان

كانت تماثل فرحة مي وأمير فرحة عائلة أخرى، ولكن في قارة أخرى مجاورة، كانت الفرحة والبهجة تخيِّم على منزل عائلة لا حول لها ولا قوة.

رُزقت بمولود جديد فدعوا جيرانهم وأصدقائهم وأقاربهم ليشاركوهم فرحتهم بهذا المولود، ودون أي تفكير استجاب الجيران والأصدقاء للدعوة، كيف لا يستجيبون للفرح الذي هجرهم منذ سنوات؟

اجتمعوا داخل منزل صغير ليحتفلوا بالمولود الجديد الذي لم يعرف بعد مقياسًا للسرور أو الحزن، وأغلقوا باب المنزل خلفهم، كان هذا الباب المتهالك هو الحد الذي يفصل بين دفء الحضور وبين الظلام الحالك الذي أسدل ستاره على الشوارع المرعبة وبعض دبابات الاتحاد السوفيتي التي نال الصدأ منها، كان للأجواء طابع مختلف وكانت للبهجة معنى، تراقصت القلوب قبل الأجساد.

انتقلت حياة هؤلاء الأفغانيين عن طبيعتها منذ تدخل الأمريكان فيها إلا أن هذا المولود جلب معه سعادة لا توصف، صحيح هي سعادة لسويعات قليلة فقط، لكنها كانت من نوع خاص، كانت كالخمر تنسيك آلامك وأحزانك لفترة كما تبقيك سعيدًا أيضًا غير أن هؤلاء القوم لم تطأ شفاههم الخمر يومًا ولم يغب عقلهم لساعة إلا من نوم أو مرض، كيف يغيب وهم عرضة للقتل في أي لحظة تحت مسمى مزعوم هو مكافحة طالبان والقضاء على الإرهاب. كانت عيونهم حالمة بمستقبل مشرق لهذا الطفل، يتمنون ألا يعاني ما عانوه، لم يجدوا مناسبة أفضل من هذه ليرتدوا أفضل ثيابهم ويتركوا تلك التي تسيطر عليها رائحة العرق نتيجة توترهم عند رؤية أحد الجنود الأمريكيين أو عند سماع دوي الرصاص.

سمعوا فجأة صوت ضجة بالخارج بينما كانوا يرقصون رقصتهم الشعبية الـ "اتن"، اعتقد محمد داوود أحد أفراد العائلة أن طالبان بالخارج لأن شوارع غارداز بالليل كانت ملكًا لطالبان فلا يستطيع أحد

الدخول أو الخروج، خرج لينظر ماذا يحدث فإذا بطائرة هليكوبتر تحوم في الأفق، انسكب وقتها ضوء القمر على مشهد يؤكد بالأدلة القاطعة أن الحرب في أفغانستان حرب باردة كما أطلق عليها البعض، فحالما وطأت قدماه خارج المنزل أُصيب بطلقات نارية من جميع الجهات دون رحمة، حينها أمسكت إحدى السيدات بزاهر شقيق محمد وترجته ألا يخرج، لكنه لم يستطع أن يرى شقيقه يزحف على الأرض والدم يتناثر منه ويقف مكتوف الأيدي، جرى بسرعة تجاه أخيه فقابله وابل من الرصاص أرقده جثة هامدة بجواره، اعتلى الجنود الأمريكيين سطح المنزل انتظارًا لضحايا آخرين، ظنت النساء أن الأمر انتهى فخرجت ثلاثة منهن ليتفقدن زاهر ومحمد، اثنتان منهن كانتا حاملتين، لم يمنع ذلك الجنود من إطلاق النار، عندها فقط ارتوى عطش الجنود للدماء قليلًا وأيقنوا أنه وقت المشاهدة واختبار من منهم سيتأثر أولًا، ولكن كيف لهذه القلوب الصخرية أن تتأثر بمشهد امرأة تحتضر وهي تلامس بأطراف أصابعها بطنها تتفقد جنينها الذي سيتبعها لا محالة؟ مَن مِن هؤلاء الطغاة سترمش عيناه عند النظر في عين امرأة تُواري خصلات شعرها خلف حجابها وهي تلتقط أنفاسها الأخيرة؟!

شعر الجنود بالملل، فقرروا فعل شيء أكثر متعة، منعوا البقية من أخذ المصابين إلى المستشفى، وقاموا بإخراج سكاكينهم وأزالوا الرصاص

بلا رحمة من أجساد لم تستعد يومًا لحرب كهذه.

لم يمنع كل هذا محمد داوود من أن يرفع يديه ليعانق الجثث التي تحيطه، لا حرمة في ذلك فقد كن زوجته وأخته وابنتها، بالإضافة إلى أخيه أول من وافته المنية.

كان محمد صابر من بين أولئك الذين شاهدوا ما يحدث دون جرأة على التدخل على الرغم من أن زوجته طريحة الأرض، اقتحم الجنود المنزل وقيدوا من كان به من خلاف وأغموا أعينهم إلا والد محمد صابر وأخاه، وضعوا من قُيد في الطائرة ورحلوا إلى مكان آخر لاستجوابهم، كل هذا ولم يُبد محمد أي شعور ولم يذرف دمعة واحدة، لكن كان لا بد من إبداء اندهاشه عندما رأى ما لم ترى عيناه يومًا، كان للمحققين لحي كأنهم طالبان إلا أن أجسادهم مفتولة العضلات وأشكالهم لا توحي بذلك، لحية طالبان بجسد جندي أمريكي توحي فقط أنه أمريكي مسلم، أطلق عليهم فيما بعد طالبان الأمريكية.

عندما عاد محمد من هذا التحقيق وجد أن الضحايا قد دُفنوا بالفعل، حينها فقط جهشت نفسه وبكى بهيستيرية، خرج من المنزل يجري يبحث عن أحد يُقرضه حزامًا ناسفًا ليفجر نفسه وسط الأمريكان انتقامًا لما فعلوه بعائلته إلا أن أخاه أوقفه وغضنه والده عن التفكير في الجهاد على الرغم من أن هذا الأمر كان وقتها أسهل من الحصول على طعام، تضايقت العائلة كثيرًا عندما ادّعى حلف شمال الأطلسي أن العائلات هم من قتلوا هؤلاء النساء دفاعًا عن الشرف الذي انتزعه منهن تنظيم طالبان، اختلقت أيدٍ خفية قصصًا كثيرة

وقتها لتناقض حقيقة ما حدث إلى أن اكتنف الغموض والالتباس الأمر!

تخلق الوحشية التي تبنتها أمريكا لمكافحة الإرهاب إرهابًا من نوع أقوى، وللحقيقة كان هناك حربان في أفغانستان، حرب يبثها التلفاز وهي احتساء الجنود الأمريكان للشاي مع القبائل الأفغانستانية لتخلق صورة تقنع من خلالها العالم أن أفغانستان ترحب بأمريكا ترحيبًا حارًا، وحرب لا يجرؤ أحد

على مناقشتها، هي تلك التي يروح ضحيتها الآلاف من الأبرياء وهي على طراز ما حدث لمحمد داوود وعائلته.

* * *

عاد وعائلته إلى المنزل بعد الارتباط بمي على فاتحة الكتاب، كانت من أجمل الليالي التي قضاها في حياته، لم ينم بسهولة تلك الليلة حيث استبد به هاجس الليل فظل يفكر بصديقيه ومي، ذرفت عيناه بعض الدموع عندما أدرك أنه على وشك السفر وترك حبيبته وصديقيه الذين قضى معهم أوقات سعيدة لن يعوضها مال أو سفر.

يوم بعد يوم، وجد نفسه يحزم أمتعته ويهيئ نفسه للرحيل، ساعده صديقاه في تجهيز حقائبه بأوجه سعيدة تحمل ابتسامات مصطنعة، كم أحبوا بعضهم البعض! وعلى الرغم من اختلاف أعمارهم إلا أن هذه هي أول مرة يبتعدون فيها عن بعضهم.

بكت أم أمير وكذلك جدته كثيرًا وفضّلت مي أن تتماسك قليلًا، بينما كان أمير وقتها بصحبة أصدقائه داخل غرفته، تلك الغرفة المليئة بذكريات لا تُنسى وبقصص هي طي الكتمان حتى الآن.

عندما رأته يخرج من غرفته لم تتحكم في دموعها ولا نحيبها ولم تدري بنفسها إلا وذراعاه يحيطان بها يطمئناها أن الأيام تمر سريعًا وأنه بين عشية وضحاها سيعود إلى مصر مرة أخرى ووقتها لن يحس بتأنيب ضمير في احتضانها؛ لأنها ستكون زوجته بالفعل.

رافقه أصدقاؤه ووالده إلى المطار، كان الزحام عنصرًا في تأخيرهم، وعندما وصلوا إلى المطار لم يتمكن من توديعهم للمرة الأخيرة حيث كانت الطائرة على وشك الإقلاع، اكتفوا فقط بتلويح أيديهم لبعضهم البعض والدموع تتساقط من عيونهم.

❋ ❋ ❋

قد يتسبب بعض الحمقى في وضع، عن طريق الخطأ،

قشة على ظهر النظام فتقصمه!

❋ ❋ ❋

صباح 6 يونيو 2010
سيدي جابر، الإسكندرية

لم تمنع الثلاثة أشهر ونصف التي انقضت منذ رحيل أمير أصدقاءه من الاشتياق إليه، فعلى الرغم من انخراط أسامة بوظيفته في مكتب المحاماة وانحصار حياة خالد بين برمجة الكمبيوتر كوظيفة والسباحة كهواية إلا إنهما كانا يجتمعان قدر الإمكان في المقهى الذي يحمل ذكريات لن تُمحى حتى لو انقلب رأسًا على عقب.

استيقظ خالد بعد نوم عميق تخللته سلسلة من الأحلام ذكّرته بالمقهى وما يحويه من ساعات فرح تارة عندما يحتفل مع أصدقائه

بفوز المنتخب المصري بكأس أو مباراة حتى ولو في إطار ودي، وحزن تارة أخرى عندما يشاهدون خبر مقتل شخص أو نشوب حريق في مصنع أدى لبطالة الآلاف، أو ما تنشره الأخبار من مأساة.

اتصل بصديقه أسامة ليطمئن عليه فأخبره أن مدير المكتب أعطاه اليوم راحة، سعد جدًا بهذا وطلب منه أن يتقابلا على المقهى بعد قليل، تناول الإفطار مع والدته ثم قبّل يدها وهمّ بالذهاب وإذ بهاتفه يرن، كان رقمًا غريبًا لا يشبه الأرقام المصرية.

- "السلام عليكم".

- "عليكم السلام ورحمة الله يا من تستعد الآن للذهاب للمقهى بصحبة أسامة".

- "من؟ أمير! صديقي.. كيف حالك؟".

- "بخير الحمد لله، لقد أرسلت لك الكثير من الرسائل عبر الفيس بوك ولكن لم تجبها، أين كنت؟ أقلقتني عليك".

- "آسف يا صديقي، لقد عزمت على الذهاب إلى الشاطئ وترك الهاتف وكل شيء، أردت فقط الانفراد بالبحر ومعالجة روحي بهوائه وصفاء مائه".

- "صفاء مائه! أتمزح يا خالد؟ كلنا نعلم ما لون المياه في الإسكندرية".

- "لقد خانني التعبير فقط".

ضحك الاثنان بشدة، ثم سأله خالد: "هل وجدت وظيفة بعد؟".

- "خالي لا يدخر جهدًا في زيارة معارفه وأصدقائه هنا لإيجاد وظيفة لي تتناسب مع شهادتي، ولكن كما تعلم ليس هذا بالأمر السهل، لكني حقًا أحببت العمل معه، فهو صاحب محل كبير لبيع الخضروات والفاكهة وأنا أساعده الآن في إدارة المحل".

- "كان الله في عونك يا صديقي، أخبرني كيف عرفت أني ذاهب لأسامة الآن؟".

- "إنني أتحدث إليه الآن عبر الفيس بوك.. آها مرحبًا يا طارق، تفضل".

سأل خالد أمير وهو يداعب خصلات شعره: "من طارق؟!".

- "إنه أحد الباعة هنا، تعرفت عليه منذ قدومي، لقد أصبحنا أصدقاء".

- "ها قد وجدت أصدقاء غيرنا".

- "لكن تبقيا أنتما صديقا العمر".

- "حسنًا يا صاح، أتمم عملك وفقك الله".

- "اذهب إلى أسامة فهو غالبًا الآن في المقهى بانتظارك".

- "إنني في الطريق إليه بالفعل".

- "صاحبتك السلامة يا صديق".

- "وأنت أيضًا يا أمير".

أنهى مكالمته مع خالد، ثم التفت إلى صديقه الجديد طارق.

يكدح طارق لعائلته الفقيرة التي تتكون من تسعة أفراد، أحدهم معاق، ويملك عربة صغيرة لبيع الخضروات والفاكهة يجرها في شوارع سوق سيدي بو زيد فلا دخل له غيرها، أحبّه أمير كثيرًا ولم يخف إعجابه باجتهاده في عمل بسيط منخفض الدخل كهذا فقط لأجل كسب لقمة عيش حلال من كدح يديه، وعلى الرغم من أن هناك الكثيرين من العمال إلا إنه كان يقوم بتلبية حاجة طارق بنفسه.

- "مرحبًا يا طارق، اجلس".

ابتسم، ثم جلس، وقال: "هل قاطعتك؟".

- "لا عليك، إنه صديقي خالد، كنت أتصل به لأطمئن عليه".

- "أين الحاج إبراهيم؟".

- "لم يأت اليوم، فقد أجهد نفسه في العمل بالأمس وفضّلت أن يستريح اليوم، لكن أخبرني كيف حال إخوتك؟".

- "بخير والحمد لله، لقد أوشكت بضاعة عربتي على النفاد وأريد بضاعة جديدة، ها هي النقود، تفضّل".

- "لا، لن آخذ نقودًا إلا بعد أن تبيع ويرزقك الله".

- "لقد بعت بفضل الله البضاعة السابقة وأريد أن أدفع ثمن الجديدة، فهذه طريقتي في البيع والشراء بعيدًا عن الديون".

- "حسنًا يا صديقي، كما تريد".

حينها دخل رجلان المحل حالما رآهما أمير عرفهما، إنهما أمينا الشرطة اللذان أوصاه خاله أن يتجنب الكلام إليهما أو النظر حتى فلا يبدو على وجهيهما الخير ولا يسوقان إلا كل شر.

- "أتعرف هذين الرجلين؟".

- "نعم، ألا أعرف من لا يكف عن مضايقتي وأخذ العربة مني بحجة أني بائع متجول أخرق القانون بوقوفي في الشارع!".

- "لهذا حذرني خالي منهما كثيرًا".

- "هما لا يتركان بائعًا متجولًا ولا صاحب محل إلا ويختلقان معه المشاكل، لكنهما على حد علمي لم يستطيعا أن يضايقا خالك يومًا، فهو على علاقة طيبة بمأمور الشرطة، حاول أن تتعامل معهما بلطف وأن تنفذ طلباتهما درئًا للمشاكل، فيبدو أنهما عرفا أن خالك لن يأتي اليوم، هم على دراية بكل صغيرة وكبيرة تحدث في هذا السوق".

أتى أحد العمال إلى أمير.

- "سيد أمير أرجوك تدخل، هذان الرجلان يريدان شراء الفاكهة بنصف السعر فقط".

رمق أمير طارق، ثم ذهب إلى أحدهما قائلًا: "خذا ما شئتما بنصف السعر كما أردتما، لا مشكلة لدي ولا أريد المشاكل".

- "لا مشكلة لديك لأنه ليس بمالك، إنه مال خالك الأخرق الذي ائتمن مثلك".

ابتسم أمير.

- "لست بخائن، أنا فقط سأترككما تفعلان ما تريدانه وسأخبر خالي الذي بدوره سيخبر صديقه الضابط وسيرجع الحق لنا، هكذا بكل سهولة".

- "كيف تجرؤ على تهديدنا يا حثالة الناس أنت؟! ولعلمك فقد انتقل مأمور الشرطة الذي تتفاخر به أنت وخالك إلى منطقة أخرى".

- "لا أعجب أن لا مشكلة لديكما في بخس الشيء حقه؛ لأنكما تخشيان شخصًا أكثر من الله".

تملك الغضب من أحدهما وهمّ بصفع أمير على وجهه، تفادى أمير بدوره الصفعة بخفة ثم وجه ضربة بقبضته إلى بطنه ورجع للوراء، اندهش طارق والعمال مما فعل، تدخلوا لتهدئة روع أميني الشرطة إلا أن لا شيء منعهما من الانقضاض على أمير، حاول طارق أن يدافع عن صديقه إلا أنه لم يتمكن حتى من منعهما من صفعه وسوقه على رؤوس الأشهاد إلى الخارج، حينها صرخ بالعمال: "فليتصل أحدكم بالسيد إبراهيم، فورًا".

* * *

وصل خالد إلى المقهى لكنه لم يجد أسامة بالخارج، فهمّ بالدخول إلا إن حال بينه وبين الدخول شخصان، حاول أحدهما تفتيشه بطريقة مستفزة لا تُعقل، بينما طالب الثاني المتواجدين في المقهى بإبراز بطاقاتهم الشخصية.

سخط على الطريقة التي يفتشانه بها فأمسك أحدهما به من الخلف ليشل حركته، بينما وجه الثاني ضربات مستمرة إلى وجهه وخصره فصرخ: "من أنتما؟ ماذا تفعلان؟!".

لم يجيباه واستمرا في إلحاق الضربات به واحدة تلو الأخرى، حينها فقط قرر أن يقاوم هذه الهمجية التي يتعاملان بها معه، وعندما حاول تخليص نفسه من أفعالهما هذه التي لا يعرف لها سببًا قاما بضرب رأسه في لوح رخامي تسبّب في كسر بعض أسنانه وجرح في فمه، قرر صاحب المقهى التدخل.

- "ماذا تفعلان؟ ستقتلانه!".

رد أحد الرجلين: "اصمت وإلا أغلقنا محلك هذا".

- "لا لن أصمت، فقط اخرجا به من هنا، لا صالح لي بكما".

حينها أخرجا خالد من المقهى سحلًا إلى مبنى مجاور، وقاما بكل وحشية بتوجيه ضربات بالأرجل إلى رأسه أسفرت عن ارتطامه بالباب الحديدي للمبنى، وعكفا على ضربه بالأيدي والأرجل ضربًا مبرحًا.

- "سأموت، لماذا تفعلان هذا؟!".

- "بل أنت تتظاهر بالموت، ونحن لن نتركك إلا ميتًا".

انهال الرجلان عليه ضربًا وسحلًا حتى شفيا غليلهما غير المبرر، وسط تجمع المارة في استغراب، لم يعد للجثة ملامح لما لاقته من أفعال هيستيرية لا يتحملها بشر، مر طبيب الحي صدفة وهمّ بتفقد

نبض الجسد الملقى على الأرض، لم يتطلب الأمر أي معدات فهو واضح كالشمس، قام الطبيب قائلًا في حزن بيّن: "لقد فارق الحياة"!

على الرغم من ارتداء الرجلين لزي مدني إلا أن هيئتهم والأسلحة النارية التي كانا يحملانها حذرت الجمع أن هذين أمينا شرطة لا قبل لعامة الشعب بهما ومخولين بسلطة لا يستطيع أحد إيقافها، كان الناس كأن على رؤوسهم الطير لا يستطيع أحد أن ينبس ببنت شفه تنهاهما عما يفعلانه.

تبدلت ملامح أحد الرجلين من ذلك المتعطش للدماء إلى المرتعش خوفًا، كأن ذئبًا سيهاجمه، لا يدري أنه لو اجتمع آكلو لحوم البشر لن يرتكبوا مثل هذا

الصنيع الذي هز أرجاء الحي.

همس للآخر: "ماذا سنفعل الآن؟ لقد مات".

- "لا تقلق، سنأخذه معنا".

- "نأخذه معنا؟! أنت مجنون؟! ألم تسمع الطبيب جيدًا؟! لقد قال إن الفتى ميت".

- "هذا أفضل، لو كان ما يزال على قيد الحياة كان سيسبب الكثير من المشاكل، احمله فقط معي وسأخبرك ماذا سنفعل".

حمل أمينا الشرطة خالد بعيدًا ثم رحلا، حينها مرت مي وإحدى صديقاتها، تفاجأتا بهذا الحشد وتجمع الكثيرين من الناس، بحثت في

الوجوه عن شخص تعرفه لتستفسر منه ماذا حدث فرأت عصام يتحدث إلى شخص ما فتناست الأمر، ثم همت بالذهاب فإذا به ينادي عليها.

- "يا مي".
- "مرحبًا يا عصام، كيف حالك؟".
- "أنا بخير الحمد لله، مرحبًا يااا...! ما اسم صديقتك؟".
- "إنها سالي، ما الذي حدث؟".
- "آه لقد نسيت، أنا آسف، إنه خالد صديق أمير، هجم عليه أمينا شرطة وظلا يضربانه حتى أسقطاه أرضًا، يقول الطبيب إنه توفي".
- "ماذا تقول؟! أين هو؟".
- "لقد حملاه وذهبا، لكن... انتظري أين تذهبين؟".

أمسكت مي بيد سالي صديقتها، ثم جرت باتجاه منزل أمير والدهشة تكسو وجهها وتتساقط بعض الدموع على وجنتيها.

رآها أسامة بالصدفة تجري مع صديقتها فأثار هذا حفيظته ونادى عليها.

- "مي! مي!".

التفتت لتجده، فأتت إليه مهرولة.

- "لماذا تجرين هكذا؟".
- "إنه خالد".
- "ما به؟ أنا ذاهب للقائه الآن، أتريدينني أن أخبره بشيء".
- "أخبرني عصام أن الشرطة أشبعته ضربًا حتى...".

صرخ أسامة: "حتى ماذا؟!".

- "حتى مات، ثم حملوه وذهبوا".

- "ماذا؟ أين؟ أين؟".

- "لا أعلم، لقد تألب الناس أمام المقهى و...".

لم ينتظر لتُكمل كلامها فقد صعقه الخبر، لم يشعر بنفسه إلا وقدماه تحملانه بسرعة باتجاه المقهى.

وصلت وصديقتها إلى المنزل، وطرقت الباب.

- "من بالباب؟ أنا قادمة، مرحبًا يا مي ومرحبًا بصديقتك، تفضلا".

- "يبدو أنك لا تعلمين ما حدث".

- "ماذا حدث؟".

- "الناس متجمعون بالأسفل يقولون إن خالد قُتل".

- شهقت أم أمير، ثم قالت: "لا! لا!".

- "لقد أخبرني عصام ذلك وهو يعرفه جيدًا، بالإضافة إلى أنه كان ضمن المارة الذين شهدوا الواقعة، لمَ لا نذهب إلى بيته".

- "انتظرا سأغيِّر ملابسي وآتي معكما".

- "غيِّري ملابسك بسرعة ريثما أوصل سالي لمنزلها وأحضر والدتي وأرجع".

اعتذرت سالي عن عدم استطاعتها لمرافقة مي، تقبلت مي الاعتذار، ثم هرولت إلى منزلها لتخبر والدتها.

أخبرت والدتها التي حالما رأت الشحوب على وجه ابنتها عرفت أنها لا تمزح والأمر جد خطير، فغيرت ملابسها، ثم عادت معها إلى والدة أمير، ثم إلى منزل خالد.

فتحت السيدة ليلى والدة خالد الباب.

- "مرحبًا! مرحبًا! ما هذه المفاجأة أنا لا أصدق عيني".

اندهش الجميع من رد فعلها، وأيقنَّ أنها لم تعرف شيئًا عن الواقعة بعد.

- "مرحبًا بكن جميعًا، كم كان سيسعد خالد برؤيتكن!".

ردت والدة أمير: "أين هو الآن؟".

- "ذهب لمقابلة أسامة، بالمناسبة كيف حال أمير؟ أتمنى أن يكون بخير".

ردت مي بسرعة: "بخير والحمد لله".

- "أخبرنني إذن ماذا أقدم لكن؟".

- "لا شيء يا سيدتي، نحن فقط نريد أن...".

- "سأحضر بعض الشاي، وبعدها أخبرنني ماذا تردن".

دلفت السيدة ليلى إلى داخل المطبخ، لم تستطع صفاء منع دموعها فأمسكت بمي، وهمست: "أأنتِ متأكدة من هذا الخبر؟ هل رأيتِه بعينيك؟".

- "لا يا أمي، لكن أخبرني عصام بنفسه".

- "وكيف نثق في صحة الخبر؟ لا يصح أن نتلاعب بقلب والدته".

- "لكن كيف يا أمي وقد تجمّع الناس وقتها كأن مصيبة وقعت بهم؟".

ذرفت أم أمير بعض الدموع كأي أم تشعر بحرقة قلب عند سماعها خبر موت شاب في مقتبل العمر، ليس هذا بأي، إنه بمثابة الأخ لأمير ابنها، مسحت أم أمير دموعها، ثم قالت: "يجب أن نصارحها بما نعرفه، لا يُعقل أن نتركها هكذا لا تدري ماذا حدث لابنها".

ردت السيدة صفاء وهي تحاول كتم صوت بكائها: "سأذهب خلفها وأخبرها على الرغم من أن قلبي لا يطاوعني، سأخبرها أن الشرطة اعتقلته فقط، ويجب أن نتصرف في أسرع وقت ممكن، لكن لن أستطيع إخبارها بمقتله، لا أصدق من الأساس".

حينها خرجت السيدة ليلى من المطبخ ورأت احمرار عيني السيدة صفاء وبعض الدموع تتساقط من عيني مي.

- "ماذا بكِ يا صفاء؟ لماذا تبكين يا مي؟".

لم تلق إجابة وقتها، فلم يستطع أحد إخبارها.

- "ما الأمر يا أم أمير؟".

ردت بصوت خافت: "لقد اعتقلت الشرطة خالد".

- "خالد! خالد من؟ خالد ولدي؟!".

احتضنت السيدة صفاء أم خالد، ثم ربتت أم أمير على كتفها، وقالت: "لا تقلقي، سنذهب إلى قسم الشرطة، لا بد أن أسامة هناك يعرف ماذا يحدث وسيدافع عن صديقه".

- "لمَ لم تخبرنني هذا منذ قدومكن؟! لا بد أن هناك سوء تفاهم فأنا أعلم ابني جيدًا لا يختلق مشاكل ولا يعادي أحدًا، كما أن الأمر لا يدعو للبكاء، لكن شكرًا على قلقكن الذي لا أجد له سببًا هذا، سأغيّر ملابسي وسنذهب لقسم الشرطة نستفسر ماذا حدث وسنعود به إن شاء الله".

- "فقط ضعه هنا واحرص أن قطعة "البانجو" قد وصلت الحلقوم فهي دليل براءتنا".

عاد أمينا الشرطة مرة أخرى وأسندا الجسد إلى الأرض، ثم لاذا بالفرار، عندها وصل أسامة إلى المقهى وأخذته الصدمة عندما رأى جثة خالد، لاصقت ركبتاه الأرض، لم تستطع قدماه حمله بعد هول ما رأى، زحف باتجاهه وهو يبكي بحرقة.

- "خالد يا صديقي، أجبني! أخبرني من فعل بك هذا، كيف تبدلت ملامحك هكذا؟ خاااالد أخبرني ماذا فعلت؟".

وجه نظره إلى الحشد وزمجر صائحًا بعدما لاحت في عبوسته بوادر الانفجار أن يساعدوه أو يطلبوا الإسعاف، فوجئ بسيارة شرطة تتوقف بجوار الجثة وينزل منها ثلاثة ضباط، همّ بالهجوم على أحد الضباط إلا أن منعه المخبران اللذان رافقاهم.

- "ماذا تفعل يا أنت؟ أجُننت؟!".

- "أنتم قتلتم صديقي يا طغاة".
- "اصمت وإلا قطعت لسانك، ماذا تقصد بأنتم؟".
أمر أحد الضباط بوضعه في السيارة كي يكف عن الكلام، ثم أخرج هاتفه واتصل بالإسعاف التي سرعان ما وصلت.

- "ماذا تقصد بأنك لن تضعه في السيارة؟".
- "لا داعي لسيارة الإسعاف يا سيدي، لقد مات".
- "ضعه وإلا سجنتك".
- "هذا مخالف للقانون، ففي حال وفاة الضحية يجب تركها في مسرح الجريمة هنا إلى حين مجيء النيابة لتتولى التحقيقات".
استشاط الضابط غضبًا عندما رفض المصاحبون لسيارة الإسعاف وضع الجثة بداخلها لكنهم أذعنوا للأوامر عندما هددهم، لم يكف أسامة عن الاستنجاد بالناس والصراخ في وجه الضابط حتى وجه أحد المخبرين ضربة إلى عنقه.
لم يتمكن أحد المارة الذين تجمهروا لرؤية ما يحدث أن يتفوه بكلمة حتى لا يصير إلى ما صار إليه أسامة وخالد، دقائق واختفت السيارتان وبداخلهما صديق شبه فاقد للوعي لا يدري أي عبث هذا، ونفس لا تدري بأي ذنب قتلت!

* * *

غيّرت السيدة ليلى ملابسها، ثم خرجت من المنزل بصحبتهن، تبدلت ملامحها عندما لاحظت نظرات الحزن والشفقة التي وجهها إليها المارة،

قُبض قلبها فجأة ولا تدري لماذا، فهمست في نفسها: "يبدو أن الحي بأكمله شاهدهم وهم يقبضون عليه".

حينها ظهر السيد محمد واقترب منهن وقال بعينين تفيض من الدمع حزنًا: "البقاء لله يا سيدة ليلى، فوالله قد نال خالد مرتبة الشهداء".

دارت الأرض بها، ثم نظرت إلى أم أمير، وقالت: "ماذا يقول محمد؟ عن أي شيء يتحدث؟!".

لم تصلها إجابة سوى البكاء والنحيب.

- "ما الذي تُخفونه عني؟ أين خالد ولدي؟ أين؟ في أي قسم شرطة الآن؟ هيا بنا، يجب أن نساعده!".

ظلت السيدة ليلى تهمس وتهمهم بكلمات غير مفهومة يتخللها "شهيد"، "خالد"، حتى فقدت وعيها وكادت تسقط على الأرض لولا إمساك مي ووالدتها بها،

وأُحضرت سيارة لنقلها إلى المستشفى بعدما خارت قواها وأغشي عليها".

* * *

أمر طارق العمال بالاتصال بخال أمير، ثم خرج يجري ويلهث خلف السيارة التي وضع أمينا الشرطة أمير بها، هو يعرف وجهتها، لا بد ستذهب إلى قسم الشرطة، لم تستطع أنظاره مجاراة سيارة شرطة

تأكل حبات الرمال المتناثرة على الطريق أكلًا كما يفعل مستقلاها عادة بالآخرين، توجه إلى قسم الشرطة وفضّل الانتظار قليلًا أمام المبنى ريثما يحضر الحاج إبراهيم.

انتفض من مكانه.

- "ماذا؟! أنا قادم، قادم حالًا".

سألت خديجة ابنته: "ماذا بك يا والدي؟".

- "لقد تشاجر أمير مع أميني شرطة وأخذاه إلى القسم".

شهقت خديجة: "ماذا؟! ولمَ هذا؟!".

- "لا أدري يا بنيتي، فقط أخبري والدتك أني ذاهب ولا تقلقيها فصديقي مأمور الشرطة هناك وسيساعدنا إن شاء الله".

دقائق قليلة مضت قبيل وصوله إلى قسم الشرطة، فوجئ بمناداة طارق عليه.

- "مرحبًا، ماذا تفعل هنا؟".

- "لقد شهدت ما حدث لأمير وأريد أن أدلي بشهادتي إذا لزم الأمر".

- "حسنًا، هيا بنا".

دخلا إلى قسم الشرطة وهناك سأل الحاج إبراهيم أحد الواقفين أمام مكتب صديقه: "السلام عليكم، هل حضرة المأمور راشد الدراجي بالداخل؟".

- "لا، ليس هنا".

- "ألم يحضر بعد؟".

- "لن يحضر يا سيدي".

- "لماذا؟".

- "لقد انتقل منذ أسبوع إلى منطقة أخرى".

بدت الدهشة على وجهه، ثم سأل: "منطقة أخرى أين؟!".

- "لا أدري، لكن المأمور الجديد بالداخل".

- "هل يمكنني مقابلته؟".

- "فقط أخبرني بخصوص ماذا تريد مقابلته وسأخبره".

- "بخصوص أميني الشرطة اللذين قبضا على ابن أختي منذ قليل في السوق".

- "حسنًا، انتظر سأخبره".

طرق الرجل الباب فسمح له المأمور بالدخول، لم يستغرق إلا دقيقتين بالداخل، ثم عاد، وقال: "لم يأت أحد اليوم هنا بمتهم من السوق مطلقًا".

صرخ طارق: "كيف؟! لقد رأيتهما وهما يمسكان به ويضعانه في السيارة".

رد الرجل بغرور: "هل رأيت السيارة تدخل إلى قسم الشرطة؟".

- "لا، لم أرها، ولكن إلى أين ستذهب سيارة شرطة تحمل متهمًا؟!".

- "هل كانا يصاحبان ضابطًا؟".

- "لا!".

حينها ابتسم الحضور ابتسامة مكر، ثم قالوا: "إذن لا يد للشرطة فيما يحدث له الآن".

حينها أمسك الحاج إبراهيم بتلابيب أحدهم، ثم قال: "ماذا يحدث له؟ أين هو يا ابن...؟".

تنفس الرجل بهدوء: "أنا فقط أحترم شيبتك هذه، ولكن إن لم تُنزل يديك عني...".

فجأة رن هاتفه، فترك الرجل ثم أمسك بالهاتف ورد على المتصل، خرج مسرعًا إلى الشارع، تبعه طارق إلى الخارج، وسأله: "ماذا بك يا سيدي؟! من المتصل؟".

- "إنه أحد العمال أخبرني أن أمير عاد إلى المحل".

- "حمدًا لله".

- "هيا بنا نسرع لنرى ماذا حدث".

- "سأوقف سيارة تحملنا إلى هناك، فأنت لا تستطيع قطع هذه المسافة فقد أخبرني أمير أنك مجهد اليوم".

- "بارك الله لك يا بني".

وصلا إلى المحل، قابلهم أحد العمال وأخبرهم أن سيارة ألقت أمير بالقرب من المحل فرآه عامل آخر ونقله إلى المستشفى لسوء حالته، وكانت ملابسه مغطاة بالدماء، رجف قلب الحاج إبراهيم وبرز القلق على وجه طارق وهرولا إلى المستشفى.

مبنى قديم يحتاج إلى ترميم، قلما تجد ممرضة أو دكتور، مليء بالغرف التي لا جدوى منها سوى تخزين الأسرّة التي عفا عليها الزمن، ظلا يستفسران حتى أرشدتهما ممرضة إلى الدور الثاني، حيث رأت هناك آخر حالة وصلت إلى المستشفى والتي نزفت الكثير من الدماء.

كان يرقد هناك على سرير صغير وبجواره ممرضة تحاول تضميد جراحه، أخبرت الممرضة الحاج إبراهيم أن أمير قد تلقى ضربًا مبرحًا أدى إلى نزيف داخلي، بالإضافة إلى الإصابات التي تغطي جسده كأنه احتضن سلكا شائكًا، نصحته بنقله إلى مستشفى أفضل وبالتدخل السريع لإيقاف هذا النزيف، بكى الذي لا يعلم بعد ما سبب كل هذا الذي حل بابن أخته، تضايق طارق كثيرًا وهو يقف مكتوف الأيدي لا يستطيع مساعدة صديقه، وضعت الممرضة بمساعدة طارق أمير على كرسي متحرك يكفي لنقله إلى الخارج حيث تنتظر سيارة استأجرها خاله لنقله إلى مستشفى آخر.

مرت الدقائق ببطء شديد، الوقت لا يريد المرور كأنه عالق بشيء، ينتظر الحاج إبراهيم وعائلته وطارق خارج غرفة العمليات أى أحد يخبرهم بحالته،

خرج الدكتور فاقتربوا منه مسرعين، بادرهم بإجابة الأسئلة التي تدور بخاطرهم وتجري على وجوههم: "ما كل هذا القلق؟! لقد أخبرتكم

أن الأمر بسيط بحمد الله، تمكنا من السيطرة على النزيف، هو أفضل الآن ولكن سيظل هنا يومين على الأقل ليتلقى الرعاية".

حمدوا الله جميعًا، ثم شكروا الطبيب ذا الوجه البشوش.

سأل طارق الطبيب: "هل يمكن أن نراه الآن؟".

- "عندما يفيق سأسمح لكم بزيارته، لكن ليس الآن".

نظر إلى زوجته وابنته، ثم قال: "لم أخبر والدته أو والده أو أي أحد ما حدث، ولن أخبرهم، لا نريد أن نقلقهم عليه طالما شفاه الله، ولكني لن أسكت عما فعلاه به هذان الوغدان".

* * *

لما أفاق أسامة من شبه الغيبوبة التي عاشها لدقائق وجد نفسه داخل مكتب أحد الضباط بقسم الشرطة، نظر إلى الضابط بوهن بينما أخرج الآخر

سيجارة وأشعلها ونظر إلى السقف بابتسامة.

قام أسامة في تعجب، ثم جلس على كرسي مقابل له، وسأل نفسه: "أين رأيت هذا المكتب من قبل؟ تذكر.. تذكر.. تذكر، آها لقد تذكرت، إنه المكتب الذي كان في الفيديو الذي أراني إياه خالد".

سأل أسامة الضابط: "ماذا فعلتم به؟!".

وجه نظره إليه، وصمت قليلًا، ثم أجاب: "البقاء لله يا حضرة المحامي".

تيقن وقتها من موت صديقه، هو يعلم منذ أن رآه أمام المقهى طريح الأرض أنه فارق الحياة، التشوهات في فكه وجمجمته التي شرخت من الخلف تعني أنه ميت لا محالة، كان يحاول تكذيب ما عاينت عيناه، سالت دمعتان على خده فمسحهما، وعلّق: "قتلتموه لأنه فضحكم، لأنه عثر على فيديو يكشف حقيقتكم".

تلاعب بأطراف أصابعه فوق عينيه مطاردًا صداعًا، أمسك بهما وبنصف رأسه الأمامي.

- "كانت رؤيتي للفيديو هي أول مرة في حياتي أشاهد ضابطًا يسأل المخبرين عن كمية ما استطاعوا جمعه من حشيش ونبات البانجو، ثم يقومون بتقسيمه بينهم، ألهذا وضعتم لفافة "بانجو" في فمه؟ ليكون جزاء كاشف الحقيقة من جنس عمل المذنب؟!".

رد الضابط: "أنا لم آمر أحدًا بقتله".

- "تُخولهم لفعل أي شيء يريدونه حتى لو وصل الأمر إلى القتل، أنت تقتل بلسانك فقط والبقية يتسارعون في تلويث أيديهم بدماء الأبرياء، ولا يستطيع أحد مجابهتكم أو إيقافكم لأن القانون في صفكم".

نفث الضابط الدخان باتجاهه، ثم قال: "اصمت وإلا قطعت لسانك".

- "نعم، القانون في صفكم، قانون الطوارئ الذي يعطيك الحق لقتل بريء وقطع لسانه إذا عارضكم".

- "صديقك الذي تدافع عنه هذا ابتلع لفافة "بانجو" أدت إلى مقتله".

- "أتريدون إغلاق القضية وإخفاء جريمتكم بهذه التهمة القذرة؟ لا تقلق سيثبت الطب الشرعي الحقيقة وستقدمون إلى العدالة لتأخذ فيكم مجراها، لقد مات صديقي لما لاقاه من ضرب مبرح على أيديكم".

- "أتدري ما السبب الذي يدفعني إلى تركك توجه لي التهم هكذا دون أن أوجه رصاصة إلى ناصيتك؟".

صمت أسامة، فأكمل الضابط: "لأنه يكفيك ما رأيته اليوم من فاجعة، وسأسامحك أيضًا على ما وجهته لي من سباب هناك في الشارع، لكن سأسألك سؤالًا واحدًا.. هل رأيت من فعل هذا بصاحبك؟".

ابتلع ريقه، ثم جاوب: "لا".

- "لكني أعرفهما جيدًا وأعدك أنهما سيعاقبان إن ثبت خطؤهما، لكن تذكر.. لا داعي لكثرة الكلام في هذا الموضوع، فقط اصمت حتى تنهي المشرحة عملها وبعد أن تنهيه أيضًا، ولا تعتقد أن كونك محاميًا سوف يغيّر من الأمر في شيء، بل العكس لو وجدنا أنك تثير الأمور حول الموضوع ستلاقي ما لاقاه صديقك وأنت تعرف كيف، اذهب الآن لتواسي أهل صديقك ولا تلتفت يمينًا أو يسارًا، شيء واحد فقط هو ما يدور في رأسك الآن.. الصداع".

خرج من قسم الشرطة بعينين لا تجد مفرًا سوى النظر إلى الأرض متحاشية نظرات السخرية التي علت بعض الوجوه، أكثر الوجوه التي

ترمقه كانت متعاطفة ولكن مقيدة، جل ما بوسعها أن تفعله أن تربت على كتفه بهدوء وتلفظ بعض كلمات المناسبات الحزينة، لا يستطيع هضم القانون الذي قتل صديقه ولا الظلم الذي سيخيِّم على الحقيقة ويغيِّرها، سلَّم جسده إلى الأرض أمام قسم الشرطة وبكى بحرقة عندما رأى ثيابه ملطخة بدم صديقه، الدم الذي سال دون سبب واضح، تمنى لو كان خرج من منزله مبكرًا قليلًا كي يدافع عنه، كأن تبكيره كان سيمنع ما وقع، ليست بمسألة وقت، لا يعلم كيف سيواجه والدته؟ كيف سيخبرها أن قتلة ابنها تواروا وسط لفافة "بانجو" إلى إشعار آخر؟

فجأة رن هاتفه رنينًا اخترق أذنيه، فاعتدل، ثم أجاب بنبرة حزينة: "من يتصل؟".

- "الأستاذ محمد".

- "أنا أمام قسم الشرطة يا عمي، لقد.. قُتل خالد"، قالها بتلعثم، ثم بكى.

- "أعلم يا بني، أعلم، رحمه الله نحتسبه عند الله شهيدًا، لم تتحمل والدته الصدمة ففقدت وعيها وحملناها إلى المستشفى".

- "كان الله في عونها".

- "أخبرني يا بني ماذا يتوجب علينا فعله الآن".

- "لا شيء، فقط سننتظر حتى يفرغ الطب الشرعي من التشريح، ولكن تأكد يا أستاذ محمد أنه لن يذهب دم صديقي هدرًا".

- "الله يسمع ويرى يا بني، ليس الجميع بهذا السوء.. أقسم لك".

أنهى المكالمة، ثم توجه إلى المشفى ليطمئن على والدة صديقه، تمنى لو عاد الزمن سويعات حتى يودعه.

* * *

أخرج الحاج إبراهيم هاتفه وهمّ بالاتصال بمأمور الشرطة صديقه إلا إنه تفاجأ أن مكالمة فاتته من الأستاذ محمد، ارتبك قليلًا، لم يكن يعرف كيف سيخبره بما حدث لابنه، قرر أن يعاود الاتصال به ويكذب ويخبره أنه بخير ولكنه مشغول وسيتحدث إليهم فيما بعد.

- "إنه بخير، لكنه في المحل الآن مشغول وأنا خارج المحل، ما الأمر يبدو على صوتك الحزن؟".

- "أخبره أن صديقه خالد انتقل إلى رحمة الله".

- "لا إله إلا الله! لله ما أعطى ولله ما أخذ، سأخبره لا شك، بلّغ عزائي لأسرة الفقيد".

- "إن شاء الله".

أنهى المكالمة، ثم نظر أرضًا، وقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

تسارعت نبضات قلب زوجته، سألته: "ماذا حدث؟".

- "سأخبركم بشيء لا أريد أن يعرفه أمير إلا بعد أن يتعافى".

- "ماذا؟!".

- "مات خالد صديقه".

ردوا جميعًا في نفس الوقت: "إنا لله وإنا إليه راجعون".

ثم أكمل طارق: "لا حول ولا قوة إلا بالله! لله ما أعطى ولله ما أخذ، لقد كان يتكلم إلى صديقه هذا اليوم عندما ذهبت إلى المحل، أحسست أنه صديقه المقرب".

- "نعم، هو كذلك يا بني رحمه الله، لكن إياكم أن تخبروه بشيء كهذا، سيزيد هذا من سوء حالته، سأذهب الآن لأستأذن الدكتور أن يسمح لنا بالدخول لرؤيته".

ظهر الدكتور فجأة مبتسمًا، ثم قال: "لا داعي فها قد أتيت، يمكنكم الآن أن تطمئنوا عليه، تفضلوا".

دخل الدكتور إلى الغرفة التي بداخلها أمير، ثم تبعه الحاج إبراهيم وعائلته.. السيدة فاطمة زوجته، وخديجة ابنته، ثم طارق على استحياء، حمدوا الله على سلامة أمير، وتمنوا له الشفاء العاجل.

بادر طارق بالسؤال: "عندما وضعاك بالسيارة وذهبا ظننت أنهما سيتوجهان إلى قسم الشرطة فذهبت إلى هناك، انتظرت حضور الحاج إبراهيم، لكننا فُوجئنا بغير هذا".

صمت أمير ولم يجب فسأله خاله: "ماذا حدث يا بني؟ أخبرنا".

زفر أمير، ثم قال بعينين شاردتين: "عندما أمسكاني وشلا حركتي ثم وضعاني بالسيارة وأغلقا الباب تفاجأت بإخراج أحدهما لمسدس وتوجيهه إلى رأسي وتهديدي بإطلاق النار إن حاولت أن أقاوم، ذهبا بي إلى مكان مهجور ليس ببعيد ثم تناوبا على توجيه الضربات لكل موضع

في جسدي بالأيدي والأرجل، وبقطعة حديدية حادة جرحت ما جرحت دون رحمة كأنني دمية تدريب لهما".

دمعت عينا أمير فربت طارق على كتفه، فأكمل: "حينما فرغا مني ثم وضعاني في السيارة حينها فقدت الوعي، ولم أشعر بنفسي مجددًا إلا وهما يقذفاني بالقرب من المحل ببرود مشاعر بل دون مشاعر، لم أكن أشعر بنفسي وقتها، أحسست فقط أن أحدهم يحملني ويجري".

علّق الحاج إبراهيم: "نعم، لقد أحضرك أحد العمال إلى مستشفى مجاور للمحل هناك، ثم قمنا بنقلك هنا لتلقي رعاية تامة فلقد نزفت الكثير من الدماء، وستظل في المشفى هنا ثلاثة أيام على الأقل حتى تتحسن حالتك".

- "لا، سأرحل معكم الآن، إنني بخير".

كتم الآلام التي لمت بجسده وحرك رجليه باتجاه الأرض، ثم همّ بالوقوف فلم يستطع وشعر بدوران وكاد أن يسقط على الأرض إلا أن طارق أمسك به وقال: "ماذا بك يا أمير؟".

- "لا شيء، لقد أحسست بالدوار فقط".

فرد خاله: "هذا يا بني لأنك نزفت الكثير من الدماء، ستبقى في المشفى هنا حتى تشعر بتحسن".

- "ولكن يا خالي...".

- "ولكن ماذا؟! لا تقلق سنهتم بالعمل ريثما تعود، سأصاحب الآن زوجتي وابنتي إلى المنزل وسأعود لك، لا تقلق من شيء".

وجه نظره إلى طارق، ثم قال: "عاود إلى عملك يا بني، شكرًا لك شكرًا جزيلًا".

- "لا تقل هذا فأمير أصبح أعز أصدقائي، لن أتركه".

رد بسرعة: "بل اذهب إلى عملك ولا تقلق عليّ يا صديقي، أنا بخير".

ابتسم طارق، ثم قال: "حسنًا، ولكن سأعود غدًا".

- "وأنا سأنتظرك يا صاح".

خرجوا جميعًا من الغرفة وتركوه بمفرده ينظر إلى السقف، يشتكي همومه وآلامه، توجهوا إلى الأسفل ثم شق كلٌّ طريقه.

توجه طارق إلى منزله يحمل بعض الطعام والشراب لأسرته التي تدهورت أمورها المادية جدًا منذ أن تُوفي والده في ليبيا وهو في الثالثة من عمره، تزوج عمه بأمه لكي يعولهم جميعًا إلا أنه تقدّم في العمر، ودع قدرته على مزاولة عمل ليجني منه المال فكان هذا سببًا في جعل طارق يعمل في سن صغيرة وهو العاشرة، ومع تقدمه في العمر بدأ في طرق أبواب الوظائف إلا أن البطالة التي اجتاحت الدولة وقتها كانت عائقًا كبيرًا أمام الشباب مثله، لا مفر إلا اللجوء إلى عربة عمه فأكمل عليها عمله وسلّم أمره لربه كعادة أكثر من يعرفهم.

وصل إلى المنزل وترك العربة بالخارج بعدما أحكم غطاءها، ثم دلف إلى الداخل حيث تجلس والدته وأخته سامية تشاهدان التلفاز، نظرت

والدته إلى سامية، ثم قالت: "جهزي العشاء لأخيكِ فيبدو أنه لم يتناول اليوم شيئًا قط".

أرخى جسده بجوار والدته التي مسحت على جبينه كعادتها.

- "ما سبب تأخيرك اليوم يا بني؟".

تأوّه قائلًا: "قصة طويلة يا أمي، لا وقت لسردها فأنا متعب".

- "هل حدث مكروه لك؟ هل ضايقك أمين الشرطة مجددًا؟".

- "لست أنا يا أمي بل صديقي أمير الذي أخبرتك عنه من قبل".

- "الفتى المصري!".

- "نعم هو".

- "ماذا حدث؟".

- "تشاجر مع أميني شرطة فأخذاه بعيدًا وأنزلا به الضرب والسبّ ثم أعاداه بعد أن غطت الجروح والضربات جسده".

- "يا إلهي! هل أغضبهما أم ماذا؟!".

- "لا يا والدتي، أنا شاهد أنه لم يُخطئ ولكن كانا في مزاج من يبحث عن العراك دون أي سبب".

- "وأين هو الآن؟".

- "في المشفى بصحبة خاله".

- "وهل ذهبت لزيارته يا بني؟".

- "نعم، لقد كنت بصحبته طيلة اليوم وهو من ترجاني أن أذهب لأكمل عملي بعدما نويت ألا أتركه".

- "كان الله في عونه".

- "إن شاء الله".
شرد في السقف قائلًا بصوت منخفض: "لا أدري ماذا سيحدث له عندما يعلم أن صديقه قد تُوفي".

قطع تفكيره صورة عرضها التلفاز في نهاية خبر لوجه مشوه جدًّا، لا تدري مكان عينيه من أنفه، فسأل: "أين هذا؟".
ردت أخته سامية التي خرجت من المطبخ حاملة لعشائه: "هذا شاب مصري اشتبه فيه أحد أمناء الشرطة هناك، حاولوا إيقافه ليستجوبوه فوجدوه يبتلع لفافة "بانجو" أو هكذا يسمونها، وجّهوا له بعض الضربات ليوقفوه عن بلعها، إلا أن ذلك لم يفلح حيث كتمت اللفافة أنفاس الشاب فاختنق حتى الموت".
ضحك طارق قائلًا: "كيف لبعض الضربات فقط أن تشوه وجهًا بأكمله، بل كيف ستوقف ابتلاع اللفافة؟! يبدو أنه لا فرق بين أمناء الشرطة هنا وهناك فكلٌ له أهواء خاصة لا يدري أحد طبيعتها ولا مصدرها!".

تناول العشاء بنهم، ثم توجه إلى غرفته المتواضعة وألقى بجسده على سرير صغير متهالك وغط في نوم عميق.

* * *

استيقظت فزعةً لا تدري ما راودها، أهذا حلم أم حقيقة؟!
تأملت في الوجوه المحيطة بها والمكسوة بعلامات للحزن كأنها لم تر فرحًا قط. نظرت إلى أسامة الذي علا وجهه الوجوم حزنًا، تأكدت

وقتها أن ابنها قتيل كما كانت تهلوس منذ سويعات قبل أن تفقد وعيها، كان يقف هناك أيضًا بجوار أسامة السيد محمد وزوجته والسيدة صفاء وابنتها، عزوا جميعًا الأم الثكلى التي سبقتهم جميعًا في إسالة الدموع والنحيب على المفقود، ضمتها السيدة صفاء ومي فيما أمسكت أم أمير بيدها، وقالت: "هدئي من روعك يا سيدتي، لقد نال مكانة عالية عند الله عز وجل".

مسح أسامة دمعات شقت طريقها إلى جانب فمه، ثم أتبع: "افرحي يا سيدتي، فأنتِ أم لشهيد".

طاف عقلها بين طيّات الماضي وتذكرت سنوات مع ابنها مرت أمامها في ثوانٍ، زفرت بحرقة على ما حدث له دون سابق إنذار، لم يكظم غيظها وقتها إلا همهمات الحزن.

فجأة اقتحم أحدهم الغرفة بسرعة، نظر الجميع بدهشة إلا السيدة ليلى التي لم تكترث بما يحدث، لقد كانت سارة ابنة خال خالد آخر من يعلم بموته لكنها أول من تكهنت أن الفيديو الذي يحمله سيسبب الكثير من المشاكل.

سرعان ما رمت نفسها في أحضان والدته التي حالما رأتها زاد نحيبها وارتفع صوت بكائها، وخيّم الحزن على الغرفة بأكملها، تلتها دموع أخواتها فيما أخذ الرجال في تهدئة النساء ليسيطرن على دموعهن لئلا يفطرن قلبها الذي تهاوت جنباته وأصبح خاويًا.

قطع رنين هاتف السيدة ليلى الأجواء، أخرجت مي الهاتف من الحقيبة وأمسك أسامة بالهاتف عوضًا عنها، ثم أجاب: "السلام عليكم".

فرد الطرف الآخر: "وعليكم السلام ورحمة الله، هل يمكنني التحدث إلى السيدة ليلى".

- "آسف إنها في حالة يرثى لها الآن ولا تستطيع التحدث إلى أحد".

- "فقط أخبرها أنني من المشرحة التي يرقد بها ابنها، نريدها أن تحضر لرؤيته".

بدت علامات التوتر على وجه أسامة الذي لا يريد تعميق جراح والدة خالد، ولكن فات الأوان، فلقد تمكنت بقلبها من إدراك أن المكالمة تخص ابنها

فرمقت أسامة، ثم قالت: "ماذا؟ من هذا؟".

هزّ رأسه توترًا، ثم أردف: "يبدو أنه أحد العمال بالمشرحة، يريدنا أن نذهب إلى هناك".

شهقت أم أمير، ثم دعت سرًا: "اللهم اخلفها خيرًا من مصيبتها".

في حين ردت السيدة ليلى بصوت يحوي أنينًا وحزنًا: "أخبره أنني قادمة".

أنهى المكالمة.

أزالت السيدة ليلى الغطاء، وقالت: "هيا يا بني لنذهب".

قال السيد محمد وقتها: "وأنا قادم معكما".

فأجابت: "لا يا محمد، ستصاحب النساء إلى منازلهن وأنا سأذهب بصحبة أسامة إلى هناك".

- "لكن لا يمكنني ترككما هكذا".
- "لا عليك، اذهب معهن لأن الوقت قد تأخر".

مسحت سارة الدموع التي غطت خديها، وقالت: "لن أتركك يا عمتي".

- "لا يا سارة، يجب أن تذهبي مع السيد محمد الآن، لقد تأخر الوقت".

- "لا، لن أذهب مع أحد". قالتها سارة، ثم احتضنت السيدة ليلى التي استندت على أسامة وأخذت بالمشي لخارج المستشفى، أوقفوا سيارة أجرة واستقلوها

في حين ذهب السيد محمد مع الباقين إلى الحي مرة أخرى آملين أن تقذف شمس اليوم الجديد الطمأنينة في قلب السيدة ليلى وقلوبهم.

عند وصولهم إلى هناك كان يغلق أحمد صاحب المحل المواجه للمقهى محله، وبمجرد أن رأى السيد محمد والبقية علم أنهم على دراية بما حدث لخالد فهرول باتجاههم، وقال: "هل يمكنني التحدث إليك على انفراد؟".

ارتبك السيد محمد قليلًا، ثم أومأ برأسه إلى البقية أن يذهبوا ورد: "نعم، بالطبع يا بني".

فاستطرد أحمد: "لقد رأيتهما".

- "رأيت من؟".
- "من قتلا خالد".
- "الجميع رآهما، فما الجديد في هذا؟".

نظر حوله، ثم اقترب من السيد محمد، وأكمل: "لكني صورتهما وهما يقتلانه".

ابتلع السيد محمد ريقه، وصمت قليلًا، ثم قال: "أين الفيديو؟".

- "لقد التقطته بهاتف والدي فلم أجد هاتفي وقتها".

- "ولكن يا بني...".

- "لا تقلق، لم أخبر والدي، كما أنه لا يستعمل هاتفه إلا للاتصال فقط".

- "أحسنت، فهذا الفيديو سيقوي موقفنا ضدهما وسيضمن حق خالد إن شاء الله، طالما هو في أيدٍ أمينة".

- "لكن يا سيد محمد لا تخبر أحدًا بما أخبرتك به للتو، فقد كانت سيارة الشرطة تمر بالشوارع منذ قليل تحذر المارة وشهود العيان من الإفصاح بأي شيء في هذه القضية".

- "لا تقلق! لن يصيبك من الأمر ضرر".

- "وأنا أثق بك يا سيدي".

- "ولكني سأحتاج هذا الفيديو في أقرب وقت ممكن لأرسله لأسامة فهو محامي كما تعلم وسيحسن استخدامه".

- "لا يمكنني إرساله لك الآن، لكن حينما يغفو والدي سأنقله من هاتفه إلى هاتفي وسأحضره لك غدًا إن شاء الله".

- "شكرًا على مساعدتك التي لا تُقدر بثمن هذه".

- "لا شكر على واجب يا سيدي، أراك غدًا".

- "إن شاء الله".

ذهب السيد محمد باتجاه منزله فيما دخل أحمد بسرعة إلى العمارة التي يقطن بها، دون أن ينتبه أن والده يشاهدهما من الطابق الثالث المواجه للمقهى، أخرج مفتاح الشقة وفتح الباب، ثم دلف إلى الداخل حيث تفاجأ به لم ينم بعد فأقرأه السلام، أجاب الحاج عبده والد أحمد السلام متظاهرًا أنه لم يره يتحدث إلى السيد محمد، دخل إلى غرفته وقرر أن ينتظر حتى يخلد والده إلى النوم ويترك الهاتف في الصالة كعادته، دقائق قليلة ودخل الوالد غرفته هو الآخر فقرر أحمد الانتظار كفاية إلى أن يغفو.

خرج إلى الصالة ليبحث عن الهاتف، جاب المكان بأثره دون جدوى، أدرك وقتها أن والده أخذ الهاتف إلى داخل غرفة نومه، تلاعبت الأفكار بعقله وظل يخطط كيف سيدخل إلى هناك دون أن يوقظ أيًا من والديه، لم يجد خيارًا سوى التسلّل إلى داخل غرفتهما بحثًا عن الهاتف.

فتح باب الغرفة بحذر، ثم تسلّل إلى الداخل على أطراف أصابعه، انتظر قليلًا حتى تعتاد عيناه الظلام، حينها سيسهل الأمر قليلًا دون إضاءة المصباح، تحسّس ملابس والده فلم يجد شيئًا، ثم بحث بهدوء في الخزانة المجاورة للسرير دون جدوى أيضًا، حينها أخرج الحاج عبده يده من تحت الوسادة ثم ألقى بالهاتف في وجهه، وسأل: "أهذا ما تبحث عنه؟".

تراجع إلى الخلف مرتبكًا، لم يتوقع حدوث هذا، ارتطم الهاتف بالأرض وتطاير غطاؤه الخارجي، استطرد والده: "أهذا ما تبحث عنه؟ الفيديو الذي التقطته بالأسفل للفتى وهو يُقتل".

قال بتلعثم: "أنا فقط أردت أن...".

قاطعه قائلًا: "أردت أن تعبث مع الشرطة، أليس كذلك؟ أنسيت أننا من عامة الشعب ولا قبَل لنا بهؤلاء؟!".

أسند ركبتيه إلى الأرض بحثًا عن الهاتف، وهو يقول: "لا تقلق يا والدي، فقط دعني أنقله إلى هاتفي ثم سأحذفه من هاتفك ومن هاتفي أيضًا، ولكن بعد أن أرسله إلى السيد محمد".

قفز من السرير وتحسس الطريق إليه، ثم أمسك بتلابيبه، وقال: "لن أتركك تجلب لنا المشاكل، لم أنتبه لأختك الصغرى عندما أخبرتني أنك أمسكت بهاتفي وصورت ما حدث، لكن عندما رأيتك تتحدث إلى السيد محمد منذ قليل أدركت أن الأمر خطير، فبحثت عن الفيديو، ثم شاهدته، أعلم أنكما تريدان ابتزاز الشرطة بهذا الفيديو، حرك أحمد ذراعيه غضبًا، وقال: "ابتزاز! أي ابتزاز هذا؟! إنه فقط مجرد فيديو يثبت براءة قتيل لم نعهد عليه شرودًا قط".

- "لقد حذفته يا بني؛ لأنهم سينتقمون من المصور قبل أي أحد آخر".

صرخ أحمد: "حذفته! لماذا؟! ألم تشاهد التلفاز بعد؟ الكل يتحدث عما حدث، الكل يُجري اتصالاته ليعرف الحقيقة التي محوتها أنت بضغطة زر".

استيقظت والدة أحمد، وقالت وهي تدلك عينيها: "ماذا يجري؟!".

فرد زوجها: "لا شيء! لا تبالي!".

كزّ على أسنانه، ثم خرج لا يدري ماذا سيخبر السيد محمد، قرر أن ينتظر إلى صلاة الفجر حينها سيخبره بما فعله والده، وضع رأسه على الوسادة يفكر ماذا سيخبره عندما يقابله إلى أن غلبه النعاس.

وصلت السيدة ليلى وأسامة وسارة إلى وجهتهم، ها هو يوم عبوس آخر يبدأ بزيارة لمشرحة، ذاك المكان الذي لا يبتسم فيه إلا ساخر أو مجنون، ولا يبكي فيه إلا حنون، دلفوا إلى الداخل عبر باب من الحديد نصفه موصد والنصف الآخر حر طليق، لم يكن هناك الكثير بانتظارهم سوى بعض العمال وطبيب مسن يبدو عليه الصلاح وأنه ذو شأن في المشرحة.

اقترب الرجل منهم، وسأل: "لا بد أنكم أقرباء خالد".

فأجاب أسامة بهدوء: "نعم، هذه والدته وهذه ابنة خاله وأنا صديقه".

- "كان الله في عونكم جميعًا وتغمد فقيدكم برحمته".

أشار لهم إلى الغرفة التي يحفظون بها الجسد، سمح الجندي الواقف أمام الغرفة لهم بالدخول بعد أن تأكد أنهم أسرة الميت، دخل العمال أولًا ثم أسامة فالسيدة ليلى وسارة وبعدهم الطبيب، أمسك أحد العمال بمقبض لأحد الأدراج داخل دولاب كبير ذي درجة برودة معينة لحفظ الجثث، سحب العامل المقبض إلى الخلف وخرج بشيء شبيه بالمغسلة التي يُغسّل عليها الميت، وها هو بالفعل جسد طريحها، عندما رأت السيدة ليلى الجثة صرخت باتجاه الطبيب: "أين ولدي؟!

أين خالد؟"، ثم نظرت إلى العامل، وقالت: "يبدو أنك أخطأت الدرج، أنا والدة خالد، هذا ليس هو".

أمسك أسامة برأسه، ثم جلس أرضًا وأسند ظهره إلى الحائط واضعًا ساعديه نصب عينيه ليخفي دموعه، بينما لم تُسقط سارة عينيها من على الجثة لثانية واحدة، تتفحص كل صغيرة وكبيرة بها وتتنفس بصعوبة ماسحة دموعها بيد وكاتمة صرخاتها بالثانية.

نظر العامل إلى الطبيب باستغراب، فاقترب الطبيب منها، وقال بهدوء: "البقاء لله يا سيدتي، ما باليد حيلة".

فردت بعد أن غدِقت عيناها: "ألم توبخهم أفئدتهم وقتها؟".

لم يجد الطبيب إجابة لتساؤلاتها فسرعان ما أمسكت بيد خالد وقبلتها قائلة: "ليتني أمسكت بك واحتضنتك ومنعتك من الخروج"، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى وجهه المهشم غير مصدقة أن هذا ابنها، شتان ما بين وجه في ريعان شبابه ووجه لا ملامح له، رقد جثة هامدة وكلتا يديه بمحاذاة صدره وتتلامس أطراف أصابعه عند منتصف الصدر بين الحلمتين، يكاد من يرى وجهه يقسم أن ما به هذا ليس إلا ضربات بسيف أو طعنات بخنجر، كأنه شهيد أحد حروب الردة إلا أنها جروح نتيجة خبط رأسه بقطعة من رخام المقهى والباب الحديدي للعمارة المجاورة عدة مرات، تحسست الرأس تاركة الجبين الذي نال أيضًا ضربة شديدة اخترقت عظامه، أرخت أصابعها لتلامس بقية الرأس إلى

أسفل، جال الدمع في عينيها عندما اخترقت أظافرها أحد الشروخ بالجمجمة من أسفل فانتزعت أصابعها بوهن.

تجمدت قطرات الدم عند أطراف خصلات الشعر الطويل نسبيًا، وبعض قطرات أخرى بأعلى عنقه، تساقطت بعض الأسنان وهُشّم البعض الآخر وأُصيب الفك الأيمن بكسر فادح فلا سبيل لغلقه مجددًا، ربضت على ركبتيها ناظرة إلى أسفل والدموع تتساقط منها على أرضية الحجرة، بينما يداها بالأعلى تكمل مسيرتها على جسد فقيدها الذي لم تخل أطرافه من كدمة أو تشنج نتيجة سحله، أمسك أسامة بيدها وساعدها على النهوض مجددًا وأخرجها من الغرفة التي امتزج ضوء لمباتها مع الحزن الذي خيّم على الموقف وقتها.

نظر الطبيب إلى ذويي خالد، وقال: "أحضرته الإسعاف ظهر اليوم، ومن وقتها وهو موضع تحليل وتشريح لأكثر من طبيب شرعي، لكن تأكدوا جميعًا أن المخلصين منهم أكدوا أن سبب موته هو ما تلقاه من ضرب وليس ابتلاع لفافة "بانجو" كما زعم محضروه إلى هنا".

شهقت السيدة ليلى وصرخت: "بانجو!".

نظرت سارة إلى الطبيب، وسألت بحزم: "أي "بانجو"؟! هيا أخبرنا ماذا فعلوا به أيضًا؟".

ارتبك الطبيب: "لا أدري يا سيدتي، أنا فقط أخبرتكم بما يزعمه الكثيرون".

رد أسامة: "هذا زعم، فأين الحقيقة؟!".

دنا الطبيب منهم، وقال بصوت خافت: "الحقيقة أن هناك شيئًا غريبًا يحدث".

تنبهوا جميعًا، فأردف: "عندما سألت أحد أطباء الشرطة الذين أتوا لتشريح الجثة عن اللفافة أخبرني أنه أرسلها للمعمل الكيميائي فوبخته على فعله هذا لأنه يجب إرسالها للنيابة العامة أولًا، ابتسم وقتها وأخرج الهاتف واتصل بأحدهم ثم تركني وذهب، وبعد نصف ساعة تقريبًا أتى أحد الضباط إلى مكتبي بالأعلى وحذرني من أن أقاطع أي طبيب أو عمل للشرطة يخص الجثة، وأخبرني أنها مسألة أمن قومي لا دخل لأحدٍ بها، حينها انتابني الشك وقررت النظر في الأمر، وجدت أن الداخلية على وشك إصدار تقرير أولي للطبيب الشرعي، هذا التقرير لن يتناول جميع الإصابات التي لحقت به، وبالتالي سيخلون ساحتهم من قتله".

قال أسامة: "وماذا حدث بعد هذا؟".

فأكمل الطبيب: "علمت بعدها أن المتوفي تربطه صلة قرابة بالطبيب علي قاسم، وهو صديق عزيز عليّ جدًّا، اتصلت به لأقدم له خالص العزاء، لم يكن يعلم وقتها أين الجثة بالتحديد فشكرني ثم أتى إلى هنا قبيل المغرب وتفحصنا الجثة معا وأخبرته بكل شيء، بعدها ذهب لمقابلة لواء بمديرية الأمن، وهو أيضًا من أعطانا رقم والدة خالد، وكان قلقًا جدًا لأنه اتصل بها كثيرًا ولم تجبه".

علق أسامة: "نعم، بالفعل عندما اتصلت المشرحة بالسيدة ليلى وأمسكت بهاتفها وجدت الكثير من المكالمات التي لم يُرد عليها، لم أعر انتباهًا للمكالمات هذه وقتها فقد كانت في حالة سيئة".

قالت سارة: "هل جاء إلى هنا بهذه الحالة؟".

أشار الطبيب بسبابته إلى سارة قائلًا: "أفهم ما تقصدينه، لا علاقة يا سيدتي للتشريح بكسر فك الجثة".

سألت أم خالد: "متى يمكننا أخذه؟".

فرد الطبيب: "ليس الآن يا سيدتي، فكما أخبرتكم.. هناك جهات كثيرة تتمحص الحقيقة وتبحث في الموضوع".

هزت رأسها متفهمة، ثم استندت إلى سارة وذهبا باتجاه الخارج، بينما شكر أسامة الطبيب والعمال وتبعهما، أوقفوا سيارة أجرة واتجهوا إلى المنزل قرابة الفجر بعد ليلة عصيبة لم تطلع لها شمس بعد.

* * *

لم يتمكن والد أمير من النوم وقتها، أمسك بهاتفه وخرج من الغرفة بهدوء لكيلا يوقظ زوجته التي لم تمر ساعة كاملة منذ أن أغمضت عينيها، اتصل بهاتف أمير فلم يجد ردًا، ففضّل أن يتصل بالمنزل وليس برقمه الشخصي لعله يجيب، كانت زوجة الحاج إبراهيم تجلس بجوار الهاتف ولكن لم تتوقع أن يتصل أحد في وقت متأخر كهذا، أجابت قائلة: "مرحبًا يا أستاذ محمد، كيف حالك أنت؟".

- "بأفضل حال، أين أمير؟".
اضطربت وقالت: "آهاه نائم، أتى من العمل ودخل إلى غرفته ونام".
- "كيف هذا؟! ألم تخبروه أن صديقه قد تُوفي؟!".
ارتبكت أكثر وأردفت متصنعةً التعجب: "صديقه! متى؟".
- "صباح الأمس، لقد اتصلت بالحاج محمد وأخبرته".
- "لاا.. لم.. يخبرني شيئًا".
- "ماذا بكِ؟ أرجوكِ أخبريني الأمر".
- "لا شيء".
- "سامحيني ولكني أحسّ الكذب في صوتك وأشعر أن مكروهًا حدث له".
- "لم يحدث شيء يا أستاذ محمد، لا تقلق".
- "إذن أين هو؟!".
- "آآآآآآ".
- "أرجوكِ أخبريني.. ما الأمر؟ لقد ازددت قلقًا".
- "حسنًا، سأخبرك وأرجو أن تتفهم ما فعلناه".
- "ماذا؟!".
- "أجهد بالأمس نفسه في العمل قليلًا وفقد الوعي ونقلناه إلى المشفى".
- "مشفى!".
- "لا تخف، إنه بأفضل حال الآن، ولكن أوصانا الدكتور أن نبقيه في المشفى يومين، وهو هناك الآن وخاله بصحبته".

- "أرجوكِ! أخبريني أهو بخير حقًا؟".
- "أقسم لك أنه بخير".
- "لماذا لم تخبرونا إذن؟".
- "لم نشأ أن نسبب لكم القلق، يكفي ما حدث لصديقه".
- "حسنًا، سأتصل بالحاج إبراهيم ليطمئنني أكثر".
- "ابنك بأفضل حال يا أستاذ محمد، الوقت متأخر إذا لم يجيبك فاعلم أنهما نائمان الآن".
- "تصبحين على خير".

أنهى المكالمة، وبدأ في البحث عن رقم الحاج إبراهيم ليتصل به ويريح نبضات قلبه التي زادت كأنه قطع أميالًا جريًا.

* * *

بحث في ملابسه عن هاتفه فلم يجده، فانتظر إلى أن تحضر الممرضة التي تشرف على علاجه، ولكنها تأخرت فاضطر إلى أن ينادي على إحدى الممرضات التي تمر بجانب الغرفة الزجاجية المجاورة لسريره، أتت الممرضة مهرولة، وقالت: "ماذا بك؟".
- "لا شيء! لا شيء! لا تقلقي، أردت فقط أن أسألك عن شيء".
- "سَلْ ما شئت".
- "أين أغراضي؟ أقصد الهاتف والنقود التي كانت في جيبي عندما أتيت هنا".

- "لا أدري يا سيدي، ولكن تمهل قليلًا ريثما أسأل بالأسفل في المخزن وقسم الطوارئ علّني أجدهم".

- "شكرًا لك".

ابتسمت الممرضة، ثم خرجت، وقتها أتى خاله وبادر بالحديث: "أتمنى ألا أكون قد تأخرت عليك".

- "وددت لو تأخرت وقضيت الليلة مع العائلة، أنا بخير هنا ولا قلق عليّ".

- "لا يمكن أن أتركك وأنت بهذه الحالة مهما حدث".

- "أتمنى أنك لم تخبر والدي أو والدتي بشيء".

- "لا تقلق يا بني، لم أخبر أحدًا بشيء".

سعل أمير، ثم قال: "هل اتصلا بك؟ لا بد أنهما اتصلا بي كثيرًا لكن الهاتف ليس معي الآن".

تعتع في كلامه، وقال مرتبكًا: "نعم اتصلا، ولكنهما لم يخبراني بشيء، كلهم بخير وأصدقاؤك أيضًا".

أحسّ أمير بهذا التوتر، فاعتدل بعد أن كان مستلقيًا على ظهره، وقال: "ماذا بك؟ ماذا حدث؟ هل الجميع حقًا بخير؟".

اتصل رقم غريب بهاتف الحاج إبراهيم، على الرغم من أن عادته أنه لا يجيب الأرقام الغريبة، لكنه أجاب الاتصال ليتحاشى الحديث إلى أمير بعد أن أوقع به لسانه.

- "السلام علي...".

قاطع المتصل الحاج إبراهيم: "من الأفضل أن تُبعد أمير هذا بعيدًا عنا يا إبراهيم إن كنت تود أن يبقى معك في تونس، بل إذا كنت تود أن يبقى على قيد الحياة".

تبدلت ملامحه وسأل: "من أنت؟ من المتصل؟"، قالها ثم خرج من الغرفة، فاستطرد المتصل: "أنتم لا قبل لكم بنا، تجنبوا الحديث إلى أميني الشرطة وتجنبوا الوقوع في مشاكل، هذا أفضل لكم، وأخبره أن ما حدث له يمكن أن يتكرر ثانية إن تعرض لهما شخصيًا أو قانونيًا".

أنهى المتحدث المكالمة دون أن يعطي فرصة للحاج إبراهيم للرد أو حتى معرفة من يتصل، لكنه لم يفكر كثيرًا فالأمر جلي، لا بد أنه أحد الذين اعتدا على أمير، اتصل ليهددهم ويتوعدهم بالأسوأ.

جلس على كرسي مواجه لغرفة أمير قلقًا، لا يدري ماذا سيخبره ولا كيف سيثنيه عن التفكير في الأخذ بثأره من هؤلاء.

عادت الممرضة إلى أمير، وقالت: "آسفة يا سيدي، لم أجد شيئًا، سألت الدكتور الذي أوقف لك النزيف قال إنه لم يكن بحوزتك أي أجهزة، وحتى إن كان معك شيء فإنه يُعطى فورًا لمن أتى بك هنا".

- "شكرًا لكِ يااا...".

- "مريم، اسمي مريم".

ابتسم أمير: "وأنا أُدعى أمير، ولا تناديني بـ"سيدي" مجددًا".

تبسمت الممرضة، ثم خرجت، نادى على خاله فأتى سائلًا: "ماذا بك؟ ما بال هذه الممرضة لا تكف عن الذهاب والمجيء؟".

أجاب: "لم أجد هاتفي بعد، وعندما طلبت من الممرضة أن تبحث عنه وعن أغراضي لم تجد شيئًا أيضًا، ألا تعلم أين هو؟".

- "لا أعلم، ولكن من الممكن أننا تركناه في المستشفى الآخر".

- "المستشفى الآخر! أي مستشفى؟!".

- "عندما وجدك أحد العمال ملقى على الأرض بالقرب من المحل حملك وذهب إلى أقرب مستشفى، لكنه كان مستشفى متواضعًا يعجز عن معالجتك

وإيقاف النزيف، فقمنا بنقلك بسرعة إلى هنا، لقد أخبرتك منذ قليل".

- "لكن.. كيف لم أشعر بهذا؟!".

- "بينما كنا نخرجك من المشفى الأول كنت فاقدًا للوعي، سأذهب غدًا إلى المحل وسأسأل العامل عن الهاتف، لا تقلق".

- "لا أقلق! كيف لا أقلق؟! أريد أن أتحدث إلى والدّي ليطمئننا".

- "ولكن يا بني أنا لم أخبرهما بما حدث لك، أنت هكذا ستقلقهما فقط".

حك جبينه، ثم قال: "لا أدري، لكن أشعر أنك تخفي عليَّ شيئًا ما".

ابتسم تلك الابتسامة التي تنبئ بأن خلفها الكثير.

- "لمَ سأخفي عليك شيئًا؟".

- "لمَ يبدو على وجهك التوتر هكذا؟! لست على سجيتك! ما الأمر؟!".

نظر إلى الأرض، ثم وجه بصره إلى اليسار متحاشيًا النظر إليه، ثم أجاب على مهل: "منذ قليل اتصل بي أحدهم، وهددني بقتلك إن تعرضت لأميني الشرطة مرة ثانية".

ابتلع ريقه، وقال: "قتل! أوصل الأمر لهذه الدرجة؟! ألا يوجد من يردع هذين الأحمقين؟".

- "يا بني أرجوك انس أو حتى تناس، أتوجس خوفًا عليك".

- "وأين مأمور القسم صديقك؟".

- "انتقل إلى منطقة أخرى".

- "أعرف، أظن فقط أنه لو...".

قاطع الحاج إبراهيم أمير: "تظن ماذا؟ أنه كان سيستمر بمنعهما فعل هذا، يا بني كنت أعلم أن هذا اليوم قادم لا محالة، كانت تحمل عيونهما الشر تجاهي دائمًا، لكنهما كانا فقط ينتظران الفرصة أن تسنح".

- "ولمَ يكنّان لك هذا الكره إذن؟".

- "ليس كرهًا بل تطفلًا، وإن كان صديقي قد منعهما لفترة فها هو قد رحل وتركهما يعيدان الكرة".

وقف الحاج إبراهيم، ثم استطرد: "لا يمكننا فعل شيء لهما، أرجوك لا تسبب لي المشاكل".

- "لا تقلق".

- "لا أقلق! يبدو على وجهك أنك تنوي الأسوأ لهما".

- "هما من بدءا ذلك يا خالي".

- "لا يجرمنك شنآنهما يا أمير، أرجوك انس الأمر، نحن هنا فقط للعيش وجني بعض المال لا أكثر، هذه ليست دولتنا".

تنهد أمير، فأكمل خاله: "كفى تعني كفى، عدني الآن أنك لن تتسبب في إزعاجهما".

صمت أمير فصرخ خاله فيه: "عدني!".

- "أعدك أنني سأتناسى الأمر لفترة ما، ولكني لن أترك تونس قبل أن أظفر بهما".

ركل الكرسي بقدمه، ثم خرج والغضب يكسو وجهه بعد أن فقد الأمل في إبعاده عن المشاكل، جلس بالخارج أمام الغرفة لا يدري ماذا يفعل، رن هاتفه فأخرجه ليرى من يتصل، ارتبك عندما رأى والد أمير يتصل به، لا يدري ماذا سيقول فلم يخبرهما بعد بما حدث لأمير، ولم يخبر أمير عن مقتل صديقه،

فضّل ألا يجيب الاتصال الآن، صمت قليلًا وأسند ظهره إلى الخلف وأغمض عينيه، سرح بعيدًا بالأفكار المخيفة التي بثها اتصال الرجل الغريب به، دقائق وفتح عينيه مقاومًا للنعاس الذي أمسك به فوجده يستند إلى حائط ويقترب منه، فقام وذهب باتجاهه وقال: "تمهل! تمهل يا بني".

أمسك الحاج إبراهيم بيده وهمّ بإدخاله إلى الغرفة مجددًا فأوقفه أمير قائلًا: "أريد أن أتحدث إلى والديّ لأطمئنهما".

- "لقد تأخر الوقت يا بني، لا بد وأنهما نائمان الآن".

- "ولكن...".

- "غدًا إن شاء الله سأتصل بهما، بل ستتصل بهما أنت عندما نجد هاتفك".

- "أرجوك جد هاتفي أريد أن أتصل بوالدي.. وأصدقائي".

أتت مريم فجأة، وقاطعتهما: "لمَ خرجت؟ ولمَ انتزعت المحلول الذي وضعه الطبيب بذراعك؟".

رد أمير: "لا تقلقي، لقد انتهى".

- "هيا اضطجع على السرير لو سمحت حتى أضع لك واحدًا جديدًا ليغذيك ويعوض ما فقدته من دم".

أنهت الممرضة عملها ثم خرجت، نظر الحاج إبراهيم إلى أمير فبادره أمير بالكلام: "أرجوك اذهب الآن".

- "أذهب!".

- "إلى المنزل، ولا تقلق عليَّ أنا بخير هنا طالما هناك ممرضة كهذه".

ابتسم الحاج إبراهيم، وقال: "كم أخشى عليك! أنسيت مي أم ماذا؟!".

- "مي! لا بد أنها تركت مئات الرسائل على الفيس بوك".

- "لا تقلق، ستتحدث لها غدًا إن شاء الله".

- "كيف هذا وأنت ما زلت هنا تقف بجواري؟ على الأقل اذهب الآن لتستطيع إحضار هاتفي غدًا".

- "سأبيت بجوارك الليلة".

اعتدل أمير، وقال ضاحكًا: "ماذا؟ أنا لا أستطيع النوم وبجواري أحد وأنت تعلم هذا، اذهب أرجوك، لا تترك أسرتك بسببي".

- "أسرتي! ماذا بك؟! أليست بأسرتك أيضًا؟".

- "أعلم، ولكن صدقني لا جدوى من جلوسك هنا".

- "لا أعلم لمَ أنت مُصِر على ذهابي لكن سأذهب وسآتي غدًا مبكرًا، أتريدني أن أحضر شيئًا لك".

صفع أمير نفسه، وقال: "الهاتف! لا تنس الهاتف".

ابتسم الحاج إبراهيم وخرج داعيًا أن ينعم الله عليه بالشفاء العاجل، وأن يرد له صحته وأفضل.

ذهب إلى منزله وفوجئ بها لم تنم بعد فألقى السلام، ردت وهي تحرك رأسها ندمًا.

أحس أن شيئًا حدث، فتساءل: "ماذا بكِ؟! لمَ ما تزالين مستيقظة؟".

- "اتصل والد أمير".

- "اتصل بي أنا أيضًا ولكن لم أجب، ما المشكلة؟! هل أخبرتِه بشيء؟".

- "كان قلقًا جدًا، وظل يتوسل إليّ أن أخبره أين أمير، ارتبكت وأنا أكلمه فشك وازداد قلقًا أكثر، فاضطررت أن أخبره".

- "لا عليكِ، فهما كانا سيعرفان لا شك، ولكن هل أخبرتِه أنه تعارك مع الشرطة وهكذا...؟".

- "لا، لم يحدث، لقد أخبرته أنه أرهق نفسه قليلًا".

- "أحسنتِ، غدًا إن شاء الله سأجعله يتصل بهما ليهدءا بالهما، سأغفو الآن قليلًا وأنتِ احرصي على أن توقظيني مبكرًا".

- "مبكرًا! ألا تعلم أن دقائق فقط تفصلنا عن الفجر؟!".

- "إذن أيقظيني الساعة الثامنة صباحًا".

- "لكن يا عزيزي من يتولى إدارة المحل كل هذا؟".

رد وهو يتثاءب: "إنه عبد الله، أحد العمال، أوصيته بتولي الإدارة دائمًا حال غيابي".

مرت سويعات قبل أن يستيقظ ليجدها بجواره تغط في نوم عميق، أمسك بهاتفه ليتفقد الساعة، نزل من السرير فزعًا بعد أن نكزها.

- "إنها الثانية ظهرًا".

- "ماذا؟! كيف هذا؟!".

- "ألم أخبركِ أن توقظيني مبكرًا؟".

توجه إلى الحمام بسرعة ولم يلتفت إلى خديجة التي كانت تشاهد التلفاز وقتها، دلفت خديجة إلى غرفة والديها مندهشة.

- "ماذا حدث؟ لمَ يهرول أبي هكذا؟".

فردت أمها بضيق: "أنسيتِ أن ابن عمتكِ بالمستشفى، وجب أن يذهب والدكِ إليه باكرًا، لمَ لم توقظينا؟".

- "لقد ظننت أن والدي بالخارج، وفضّلت أن أتركك ترتاحين وقمت أنا بتحضير الطعام".

- "وجب أن توقظينا، اذهبي وابسطي المائدة".

خرجت خديجة إلى المطبخ فيما دخل والدها الغرفة وبدّل ملابسه، ثم صلى وخرج، فنادت زوجته: "ألن تتناول الطعام معنا؟".

كانت الإجابة هي غلقه لباب الشقة خلفه بقوة.

وصل إلى السوق ومر بجوار عربة طارق، لم يلتفت وقتها فكثير من التساؤلات كانت تدور بخلده، فنادى طارق: "كيف حال أمير يا سيدي؟".

التفت خلفه فرآه، ثم أجاب: "بخير والحمد لله".

- "هل يمكنني زيارته؟".

- "بالطبع يمكنك زيارته في أي وقت، لكن لا تشغل بالك ولا تعطل عملك".

دلف إلى داخل المحل وتوجه ناحية عبد الله سائلًا: "من العامل الذي حمل أمير إلى المشفى بالأمس؟".

رد عبد الله: "إنه سلّام يا سيدي".

أقبل العمال على الحاج إبراهيم يسألونه عن أمير، فطمئنهم وشكرهم على اهتمامهم، ثم أدار بصره تجاه سلّام، وقال: "لم نجد هاتف أمير بعد يا سلّام، هل كان بجيبه عندما كنت تحمله؟".

- "لا أدري، لم أنتبه".

- "هل قام أحد من المشفى عندما حملته إلى هناك بتفتيشه أو ما شابه؟".

رد سلّام: "لا يا سيدي".

نظر إلى الجميع، وسأل: "هل رأى أحد الهاتف؟".

أجابوا بالنفي.

وضع كف يده على رأسه مخاطبًا نفسه: "تُرى أين هذا الهاتف؟".

انتبه بعدها إلى العمال فشكرهم وأمر أن يكمل كلٌ عمله، ثم توجه بعدها إلى المستشفى وطرق باب غرفته ودخل.

- "أعلم أنني تأخرت كثيرًا هذه المرة".

أجاب بابتسام: "لا عليك، فقط أخبرني أنك وجدت الهاتف".

أجاب بحنق: "طفح كيلي بسبب هذا الهاتف، لم أجده ويبدو أننا لن نجده، تذكر أنت أين وضعته أو نسيته".

عبس أمير: "لقد كان بجيب بنطالي، أنا متأكد".

- "إذن هما أخذاه".

اعتدل أمير.

- "نعم، من الممكن هذا، لا سيما أنني كنت فاقدًا للوعي قبل أن يلقياني من السيارة، ولكن ماذا سيفعلان به؟".

- "لا أدري، أخبرني.. هل يحوي أشياء خاصة؟".

- "لا، مجرد أرقام فقط وبعض الصور".

- "لا داعي للقلق إذن، سنشتري هاتفًا جديدًا حالما تتحسن حالتك، ألا تريد التحدث إلى والديك؟".

- "بالتأكيد".

- "ها هو هاتفي، تحدث إليهما وأنا سأذهب لأحضر شيئًا أتناوله، أتضور جوعًا منذ أن استيقظت، تذكر لا تخبرهما بما حدث حقيقةً لك، فقط أخبرهما أنك تعبت قليلًا ولا شيء آخر".

* * *

- "كيف مسح والدك الفيديو؟! ألم تخبرني أن والدك لا يعلم شيئًا عنه؟!".

- "ظننت أنه لم يرني وأنا ألتقطه، لقد أردت فقط أن أساعد".

- "ولمَ لم يُرد والدك أيضًا؟".

- "خوفًا، فكما تعلم مرت سيارات الشرطة عدة مرات لتحذر العامة من الحديث في هذا الموضوع، فماذا عن شخص التقط كل شيء بكاميرا هاتفه؟".

تنهد السيد محمد بعينين ترمقان الأرض.

- "لا عليك، فربما كان سيجلب هذا الفيديو مشاكل أكثر".

رن هاتف محمد فاستأذن أحمد بالانصراف، ثم ابتعد قليلًا قبل أن تلتقط أذناه صوت أمير.

- "أبي".

انفرجت أساريره عندما سمع صوت أمير فتردد صوته: "أمير! كيف حالك يا بني؟".

- "كيف حالك أنت وحال والدتي ومي وباقي العائلة؟".

- "بخير جميعًا، والحمد لله".

- "هل والدتي بجوارك؟ أريد التحدث لها".

- "لا يا بني، أنا لست بالمنزل الآن، إنني بالخارج أتحدث إلى أحمد عبده جارنا، لقد أخبرني بالأمس أنه صور ما حدث لخالد لكن للأسف مسح والده الفيديو".

- "وما الذي حدث له يستحق التصوير؟".

انثنت قامته وهنًا أحس أن خطأ حدث للتو، فأجاب على مضض: "ألم يخبرك خالك؟".

- "يخبرني بماذا يا والدي؟ أرجوك تكلم".

تردد السيد محمد، ولكن لم يجد مفرًا من تساؤلات أمير الحادة، فأجاب بنبرة حزينة والألم يعتصره: "خالد صديقك في ذمة الله".

انتفض أمير: "ماذا؟! خالد صديقي! كيف؟! كيف؟!".

سقط الهاتف من يده على الأرض بجوار السرير، انتزع الإبر التي تخترق جلده للتغذية تاركة خلفها بثورًا ينبع منها بعض قطرات الدم، ثم التقط الهاتف وصرخ بدموع تهبط بمحاذاة أنفه فلم يجد ردًا، تفحص الهاتف فلم يجد إجابة، لا زر يعمل، لا شيء، ضغط عدة مرات على زر التشغيل ولكن دون

جدوى، حتى أيقن أن البطارية قد فرغت أو أن صدمة الهاتف بالأرض عطّلته.

ظل يدور في الغرفة والغضب الممزوج بقلة الحيلة يتساقط مع الدموع التي جالت عينيه، مشوش التفكير لا يدري ماذا يفعل، تحشرج صوته وظل يجيء ويذهب في هيستيرية حتى ربض بجوار السرير كنار أخمدها خنق الهواء لها.

شردت عيناه في الأرض حتى قطع حالته المزرية هذه قرع الباب، ثم دخول خاله ممسكًا بكوب من القهوة ذي رائحة قوية نفاذة قطعت بسرعة طريقها إلى أنفه فانتبه، دار ببصره الغرفة بحثًا عن أمير حتى

رأى شعره بارزًا من ركن بجوار السرير، ظن أن مكروهًا حدث فوضع القهوة جانبًا بسرعة ثم اقترب بخطوات حثيثة.

- "أمير! ماذا حدث يا بني؟".

رمقه بلا تعبير، فاستطرد بعد أن قرأ دموعه وخمّن سببها: "لم أشأ أن أُخبرك، كانت حالتك سيئة وكنت بالكاد تستطيع الوقوف على قدميك".

اقترب منه، ثم احتضنه، وقال: "سامحني يا بني، أنا آسف".

أبعد أمير يديّ خاله عنه، ثم ضرب بقبضة يده المنضدة بجواره صارخًا: "وجب أن تخبرني وقتها، هذا ليس مجرد صديق".

ضاق صدره وحُبس صوته واحمر وجهه حزنًا فظل الحاج إبراهيم يهدئ من روعه حتى زفر بعمق، وقال بهدوء: "أتمم يا خالي أوراق السفر فلا يمكنني البقاء هنا أكثر".

رد خاله: "أعلم أنك تحمل الآن همًا وحزنًا تنوء بهما الأكتاف، ولكن هوّن عليك يا فتى".

قطع طرق الباب السكون الذي ساد للحظات، دلفت مريم إلى الداخل فتداخلت ملامحها وأصاب وجهها العبس عندما رأت ما فعل أمير بالإبر وقد تسللت بعض قطرات المحلول منها إلى الوسادة فنهرتهما: "لمَ فعلت هذا؟ ولمَ تجلسان أرضًا هكذا؟! أجُننتما؟! ماذا بكما؟!".

استند أمير إلى الحائط، وقال: "أخبري الطبيب أننا سنذهب الآن".

نزع أمير الغطاء الطبي فكشف عن ملابس لطختها الدماء، رمقته مريم بحزن بعد أن رأت خطوط الدموع على وجهه، لكنه لم يلتفت لها فخرجت مسرعة.

- "ماذا تقصد بـ (سنذهب الآن)؟!".

دار باتجاه خاله، ثم أجاب وهو يمسح الدموع التي تسللت إلى داخل شعيرات لحيته القصيرة: "يعني سنذهب الآن للبيت ولن نمكث هنا لدقيقة أخرى".

همّ بالخروج فأمسك به خاله من الخلف مهدئًا.

- "انتظر فقط حتى يأتي الطبيب ونستشيره".

دلف الطبيب إلى داخل الغرفة فجأة ورأى ما حل بأمير وخاله فأجاب بتفهم: "يمكنك الذهاب الآن، لكن احرص على التغذية"، قالها الطبيب وخرج، فالتفت إلى أمير: "انتظر حتى أحضر لك بعض الملابس وأرجع".

- "لا لن أنتظر، فلا جدوى من الملابس، سنستقل سيارة أجرة إلى المنزل مباشرة".

* * *

- "هل جُننت يا أنت؟! عن أي أصوات تتحدث؟!".

أجاب الرجل: "أقسم لكِ يا سيدتي أنني سمعت أصوات مخيفة تصدر من تحت الأرض بجوار منزلي هناك".

أبدت الشرطية تعجبها مما تسمع، ثم قالت: "وأين تسكن أنت".

- "على بُعد عشرة كيلو مترات من هنا باتجاه الريف".

- "عشرة كيلو مترات ولم تجد قسم شرطة غير هذا؟!".

- "المنطقة ريفية ولا يوجد بها أقسام شرطة فأتيت بصحبة أخي الذي ذهب إلى السوق بعد أن أحضرني إلى هنا".

- "ولِمَ لم تتصل بنا؟".

- "اتصلت بالأمس عدة مرات، تارة تستهزئون بي وتارة تخبروني أنكم قادمون وتتجاهلون".

ضغطت الشرطية على زر أحمر فوق مكتبها جهة اليمين، طرق بعدها بلحظات اثنان الباب ثم دلفا إلى الداخل وأظهرا التحية الشرطية لها، أمرتهما بالذهاب مع الرجل واستكشاف ما يتحدث عنه.

خرجا وتبعهما الرجل الريفي بعد أن شكر الشرطية التي نادت عليه قبل أن يخرج وأرخت يديها إلى الأمام بمحازاة المكتب، ثم سألت: "ماذا تتوقع أن تكون هذه الأصوات؟".

أجاب الرجل بنظرات مخيفة: "لا أدري، عندما يستمع أحد إلى الأصوات الغريبة هذه يشعر أن أحدًا يستنجد به من الأسفل!".

خرج الرجل الريفي بصحبة أميني الشرطة وتوجهوا إلى الخارج واقتربوا من سيارة، فتح أحدهما بابها وأشعل المحرك فيما دلف الآخر إلى جواره وتبعهما الرجل الريفي في المقعد الخلفي، اتجهوا إلى منزله بعد أن زودهما بالعنوان، شعر الرجل بعدما مركز قدمه في منتصف

أرضية السيارة بمادة لزجة، رفع الرجل قدمه فوجد مادة بين الاحمرار والسواد تغطي أسفل حذائه فتساءل: "ما هذا الذي بالأسفل؟".

رد أحدهما بلا مبالاة: "ماذا؟!".

فأردف الرجل: "هناك دماء تغطي الأرضية".

رد الآخر قائلًا: "ربما كان ينزف أحد المجرمين ممن قبضنا عليهم، لا شأن لك بهذا". قالها ثم التفت إلى أمين الشرطة الآخر بجواره، وقال كازًا على أسنانه: "من أمرت ليمسح الدماء؟!".

أجاب الآخر بعد أن رمق الرجل الريفي: "مسحتها أنا بنفسي سريعًا، ولكن اكتفيت بالمقاعد ولم أكترث للأرضية، ولكن لا تقلق سنتخلص منه قريبًا كما سنتخلص من الهاتف".

- "لا! لا! الهاتف يروق لي، أعطه لي إذا لم يكن لك به حاجة".

قاطعهما الرجل مبتلعًا ريقه، وقال بصوت يتخلله القلق: "ليس من الجيد سيداي أن تحتفظا بدماء أحد في السيارة".

لم يجد ردًا، فأردف: "يقول البعض إن السحر يرتبط بالدم ارتباط الـ...".

نظر أحدهما إلى الخلف، وقاطعه صارخًا: "أي سحر هذا يا أنت؟! ألم أخبرك أن تصمت؟! صحيح أخبرني ما الأمر الطارئ الذي تحدثت إلى الشرطية فيه؟".

رد الرجل بصوت متقطع مدركًا أن رده لن يروق لهما: "هناك أصوات غريبة تصدر من حفرة من الأرض بجوار منزلي".

أوقف أمين الشرطة السيارة فجأة ثم مد يده إلى الخلف وأمسك بتلابيب الرجل، ومن ثمّ وخزه بكلمة نابية: "سحر آخر؟! تحدثنا عن الدماء والسحر ثم تقول إنك تسمع أصوات غريبة! من أنت يا هذا؟ ماذا تريد؟".

رفع الرجل الريفي يديه مستنكرًا: "لا يا سيدي، ليس سحرًا، سترى بعينك وتسمع بأذنك".

-"لقد طفح كيلي، هيا اخرج من السيارة".

رد الآخر: "لنعطه فرصة، وإن كان ما يتحدث عنه هذا كذب أو مزاح، لن يفلت من قبضتنا ولا من قضية إزعاج السلطات".

رمق الأول الرجل الريفي بغضب، ثم أشعل المحرك وأكمل المسير.

وصلوا إلى منزل الرجل الذي سرعان ما نزل من السيارة، ثم اتجه إلى مكان يتجمع فيه ما يقرب من عشرة أشخاص بشكل شبه دائري حول انشقاق غريب في الأرض بأوسطه حفرة لا يتجاوز قطرها نصف المتر ولا يعرف أحد عمقها، كل محاولتهم لسماع صوت صخرة صغيرة يلقونها عند اصطدامها بالقاع باءت بالفشل مما يدل على عمق شاسع، أفسح المجتمعون المجال لأميني الشرطة اللذين علت وجههما نظرات الاستهزاء.

صرخ أحد الجمع بالبقية: "اصمتوا جميعًا ليتمكنوا من سماع الأصوات".

اقترب أمينا الشرطة من الحفرة ولكن لم تلتقط آذانهما شيئًا فرمق أحدهما الرجل الريفي الذي رد مسرعًا: "اربض على الأرض وقرب أذنك من الحفرة لكي تستطيع السماع جيدًا".

صاح الآخر: "كفى هذا الهراء".

فأتبع الجمع صرخاتهم اعتراضًا، فيما همس الرجل الريفي: "أرجوك سيدي ادن، أنا فقط أحتاج تفسير ينزع الرهبة من قلبي وقلوب أسرتي، ويمنع الناس من التجمع حول داري".

ربض أمينا الشرطة بالقرب من الحفرة وحبس البقية أنفاسهم واقتربوا فسمعوا جميعًا أصوات كأن مجموعة من الناس يصرخون استنجادًا، أصوات تبدو بشرية لكن لا يعلم أحد ماهيتها بعد، تقلصت ملامح أميني الشرطة، فيما نظر أحدهما للآخر بغرابة، وقال: "أخرج هاتفك أريد تسجيل هذا".

ذهب الآخر إلى السيارة، ثم عاد بهاتف وضغط زر تشغيله، ثم أعطاه للجالس أرضًا والذي لم يُبد أي اندهاش، قرّب يده من الحفرة ثم همّ بالضغط على زر تشغيل مسجل الصوت فوردت مكالمة إلى الهاتف فأجابها عن طريق الخطأ ولم يدر ماذا يفعل، ارتفعت الأصوات الصادرة من الأرض فجأة، وارتبك فسقط الهاتف من يديه وهوى إلى أسفل الحفرة.

فرحت مي عندما رأت أن الطرف الآخر قد أجاب المكالمة، فقالت: "أمير أين كنت؟ لقد قلقت عليك كثيرًا".

لم تتلق مي وقتها أي رد سوى صرخة تلاها صوت تشويش تتخلله همسات تبدو بشرية، فأردفت: "ما هذا؟! أين أنت؟ لا أستطيع سماعك".

ارتفاع وانخفاض في الصرخات بالإضافة إلى صوت صاخب، أنصتت جيدًا ولكن لم تستطع تحديد ماهية هذه الأصوات، فخرجت من غرفتها والدهشة تكسو وجهها، ثم اتجهت ناحية والدتها ووضعت الهاتف بجوار أذنها، استمعت إلى الأصوات قليلًا، ثم علقت: "ما هذا؟! من هؤلاء الذين يصرخون يا مي؟".

سحبت نفسًا إلى صدرها، ثم أجابت: "هذا أمير، لكن لا أدري ماذا يحدث".

اعتدلت والدتها، ثم قالت: "لمَ أشعر أنها أصوات بشرية لأناس يتألمون؟!".

علت دقات قلب مي التي قربت الهاتف من فمها، وصاحت: "أمير أرجوك أجبني؟ ماذا يحدث؟".

قُطع الاتصال فعاودته، ثم ألقت الهاتف بجوار والدتها بعد أن تسرب صوت إلى أذنها يعتذر عن نفاد الرصيد.

جرت إلى غرفتها، ثم عادت مرتدية عباءة سوداء تتناسب مع ما يشعر به الشارع الآن تجاه ما حدث لخالد، توجهت إلى باب الشقة فسألتها والدتها: "إلى أين؟".

ردت بنظرات صارمة: "إلى منزل أمير.. لأسأل عن أخباره".

كان وقتها يجلس السيد محمد يحكي ما حدث لأمير من إرهاق ونقله إلى المستشفى وهكذا كما أخبرته زوجة الحاج إبراهيم، كما أخبرهم أيضًا بأنه تواصل مع أمير بنفسه وتأكد أنه بخير لكيلا ييأس قلب والدته، لم تزد كلماته زوجته إلا القلق، فنحبت: "أريد أن أتصل به الآن".

فأقسم: "لقد تحدثت له بالأمس، وهو بأفضل حال صدقيني ولكن...".

- "لكن ماذا؟".

- "لم يكن عرف بموت خالد بعد فصدمه الخبر، بعدها انقطع الاتصال".

انتفضت والدة أمير، فاستطرد: "لكن اتصلت بعدها بخاله فأخبرني أنه بخير، ولكن لا يريد التحدث إلى أحد، بالإضافة إلى أنه يحاول إرجاعه عن فكرة العودة إلى مصر".

قطع حديثهم طرق على الباب فأسرع وفتح فإذا بمي تدخل بسرعة والقلق مصاحب لها، توجهت تلقاء والدة أمير، ثم قالت: "ما بال أمير؟ لمَ لم يعد يتصل بي؟".

فأجابت جدته: "لا شيء يا ابنتي، إنه فقط مشغول في العمل هذه الأيام".

وجهت مي نظرها إلى والدة أمير، وقالت: "عندما اتصلت به منذ قليل سمعت أصوات غريبة لا أعرف ماهيتها، ولم يتحدث مطلقًا، فما الأمر إذن؟! هل يعبث معي؟".

انتفضت والدته، ثم اقتربت من السيد محمد وصرخت: "اتصل به الآن، أرجوك؟".

- "صدقوني هاتفه لا يعمل، لقد اتصلت به كثيرًا وكان الهاتف مغلقًا إلى أن اضطررت أن أتصل بخاله وزوجته".

زمجرت مي وقتها وبدا في عبوسها بوادر الانفجار قائلة: "لقد اتصلت به على هاتفه وأجابني منذ قليل، ولكن لم أسمع له صوتًا".

زفر، ثم أخرج الهاتف من جيبه واتصل بأمير ورفع صوت الهاتف ليُسمع الجميع.

رنين دون إجابة، اتصل مرة أخرى فلاقى نفس الإجابة، فقال: "حسنًا! أرأيتم؟! سأتصل الآن بالحاج إبراهيم".

أجاب فانتزعت والدة أمير الهاتف، وقالت بشغف: "أين أمير يا إبراهيم؟".

فرد: "هدئي من روعك يا أختاه، إنه بخير".

- "أين هو إذن؟".

- "في غرفته الآن، سأعطيه الهاتف لكن تذكري أنه في حال يرثى لها بسبب فقدانه لصديقه، لا داعي لتعميق جراحه أكثر".

- "حسنًا! حسنًا! سأطمئن عليه فقط".

استأذن بالدخول إلى غرفة أمير فأذن له.

- "والدتك على الهاتف تريد التحدث إليك".

رمقه بغضب دون أن يتكلم فضغط على زر تكبير الصوت، فدوى صوت والدة أمير: "أرجوك تحدّث إليّ يا بني".

تسابقت دمعتان من عينيه إلى الأسفل، فيما أمسك بالهاتف مجيبًا على مضض: "أنا بخير يا أمي، لا تقلقي".

- "ماذا بك يا بني؟".

- "لا شيء يا أمي، أرجوكِ"

صمتت والدته لثوانٍ فاستطرد: "هل يمكنني الاتصال بوالدته الآن؟".

- "أفضّل ألا تكلمها الآن يا بني، فهي في حالة لا تُحسد عليها".

- "لا تكفي عن زيارتها ومواساتها إذن".

- "لا تقلق".

بينما تبتسم والدة أمير سعادة بالحديث إلى ابنها التقطت عيناها الحزن والوجوم على وجه مي، فتظاهرت بأنه يريد التحدث لها.

- "ها هي ذا".

انقشع هم مي عن قلبها والحزن عن وجهها وانفرجت أساريرها كاشفة عن ابتسامة تزيد جمالها ألف جمال، ثم أمسكت بالهاتف وأسرعت إلى غرفته وهي تقول: "كيف حالك؟".

استدرك ما فعلته والدته، اعتدل وأجاب بعدما دق قلبه ونسي حزنه: "أنا بخير، كيف حالك أنتِ وكيف حال عمتي؟".

أدرك الحاج إبراهيم أن مي تتحدث الآن ففضّل الخروج.

باغتته مي قائلة: "اشتقت إليك!".

خفق قلبه وعلت النبضات مرسلة مادة إلى العقل تنسيه الهموم التي اكتنفته لوهلة، ولم يجد مفرًا من الرد، فقال: "بل أنا اشتقت أكثر".

انشرح صدرها وابتهجت لوقع الحروف على قلبها، وعُقد لسانها فعجزت عن الرد، فأكمل هو: "آسف لأنني قطعت الاتصال بكِ هذه الفترة، فقد حاز العمل على أكثر وقتي".

- "اتصلت بك منذ قليل، لما أجبت ولم ترد قلقت عليك".

- "لا تقلقي، ولكن الهاتف ليس بحوزتي الآن لقد سقط مني فلا تتصلي بالرقم هذا ثانية، سأشتري هاتفًا جديدًا وسأتصل بكِ".

همهمت متفهمة، ثم قالت بهدوء والوله يصاحب صوتها: "آسفة على ما حدث لخالد رحمه الله".

- "رحمه الله، أنا قادم في القريب العاجل، سأنهي الأوراق اللازمة غدًا بمشيئة الله".

- "حقًا؟!".

- "بالتأكيد، لكن لمَ يبدو على صوتك الحزن؟".

- "هل وافق خالك على تركك؟".

تردد صوته: "لا لم يوافق، لا يهم".

- "أتدري لمَ؟".

صمت فأتبعت: "لأن خالد رحل إلى الله يا أمير، لا جدوى من عودتك".

تعجب من قساوة كلامها، فسأل: "ماذا تقصدين؟!".

- "أقصد أن خالك على حق، أعلم أن خالد لم يكن مجرد صديق، بل كان بمثابة أخ لك لكن...".

صرخ بها: "لكن ماذا؟!".

- "انظر إلى مستقبلك، إلى مستقبلنا، فكر في الأمر ستجد أن لا طائل منه، على الرغم من أنني أكثرهم اشتياقًا وانتظارًا إلا إنني أخبرك الحقيقة".

همّ أمير بالرد إلا أن مي شدت لثامًا على فمه بقولها: "ابق لأجلك.. وابق لأجلي!".

صمت قليلًا فأحست أنه تفهّم ما قالته، فأجابها: "لا أعلم، لكن سأعيد التفكير".

أراد أن يعيد للحديث روح الاشتياق، فسألها: "هل يمكنكِ الدخول إلى غرفتي؟".

- "أنا بها بالفعل".

ابتسم، ثم أردف: "ألا تفتأي تذكرين الكتاب الذي أعرتني إياه منذ فترة؟".

- "منذ سنوات! أما زلت تحتفظ به؟".

- "نعم بالطبع، ستجدينه في أول درج من المنضدة، لقد قرأته".

أخرجت الكتاب ووضعته على المنضدة فانفرجت جوانبه عن وردة ما زال عطرها يفوح كأنها قُطفت للتو من أجلها، جاورت الوردة عبارة بخط يده بين علامتي تنصيص تقول: "ألا تبًا لحب هذه الآلام عقباه!".

ابتسمت فأحس بدفء ابتسامتها، قال قبل أن يُنهي المكالمة: "إنها لكِ".

احتضنت مي الكتاب بما يحويه، ثم ألقت بنفسها على سريره.

* * *

تراجع الجمع بعد أن دق صوت الصراخ طبول آذانهم، تضايق أمين الشرطة بعد أن سقط الهاتف من يديه في الحفرة، فقام والدم يتدفق إلى وجهه غضبًا وتوجه إلى السيارة كاتمًا غيظه، فيما صرخ أحد الجمع: "أظن أن الأمر له علاقة بالجن، فكلنا نعرف أن أحدهم قُتل هنا منذ شهر، وكلنا رأينا دماءه تغطي الأرض ولا تجد ما يغطيها".

رد أمين الشرطة الآخر: "اصمت يا أخرق، أتريد الربط بين الدماء والجن كالأحمق الآخر الذي جاء بنا هنا؟ من أراد أن يعرف ماهية الصوت فليحفر ليستكشف وسيكون الهاتف كنزه أو الموت خوفًا مصيره.

ذهب الآخر إلى السيارة ورافق صديقه، ثم أشعل المحرك وتحركا عائدين أدراجهما، حينها أمسك أحد الأطفال بيد والده الواقف في منتصف الجمع حول الحفرة قائلًا: "والدي.. هل رأيت جروي؟".

بينما كان أمينا الشرطة في طريق العودة نظر أحدهما إلى الآخر، وقال: "لم أقصد أن أُسقط الهاتف، لكن ارتفع الصوت عندما وردت المكالمة".

- "لا تعبأ، لكن تُرى هل سمع المتصل أيًا من هذه الأصوات؟ لا بد أن الهاتف تحطّم عندما وصل الأرضية".

هز الآخر رأسه نفيًا.

- "لا أظن ذلك، فللهاتف جراب قوي يقيه نتائج السقوط، لكن ما يضايقني بحق هو أنني أعتبر ما حدث استهزاء لا يُغفر بالعقول".

- "لا عليك، الأهم أننا تخلصنا من الهاتف".

- "ظننت أن الهاتف يروق لك وتريده".

- "لم يعد، فربما كان سيسبب المشاكل".

دخلا بالسيارة الطريق الأسفلتي بعدما عبرا الترابي الشاق للبيوت الريفية فقلت الضجة الناتجة عن احتكاك العجلات بالأرض، وعندها تمكنا من سماع صوت بالكرسي الخلفي، نظر من يمسك بعجلة القيادة للخلف فرأى كلبًا صغيرًا يشتم الدماء أو ما تبقى منها، نظر إلى الطريق وهدأ السرعة قليلًا، ثم عاود النظر ثانية، فنبح الكلب، ضغط على فرامل السيارة بقوة فاحتكت عجلات السيارة بالأرض أكثر وفقد السيطرة عليها، ثوان معدودة وانحرفت عن الطريق، ثم انقلبت رأسًا على عقب نتيجة لحفر صغيرة جانبت الطريق قبل أن ترتطم بجدار محاذ للطريق، كأنما بُني خصيصًا لارتطامها وإسكانها أرضًا.

لامس سقف السيارة الأرض وجاورت النافذة الرمال مما سهل على الجرو الخروج دون مشقة القفز عندما دخل السيارة من قبل.

* * *

سمع السيد محمد صوت ضجة بالخارج فخرج إلى الشرفة لينظر ماذا يحدث، رأى مجموعة من الشباب تهتف بالخارج من ضمنهم أسامة فنادى عليه، لم يسمعه أسامة فنادى مرة أخرى إلى أن سمع النداء أحد في ركاب أسامة فأسرع وأخبره، التفت أسامة إليه ثم رجع مقتربًا من الشرفة.

- "ما هذا يا بني؟".

رد واضعًا يديه حول فمه ليسمع من بالجوار: "سنتجه الآن إلى قسم الشرطة لنتظاهر هناك طلبًا للقصاص".

- "ليكن الله في عونكم ومسددًا لخطاكم"، قالها ثم دلف إلى الداخل بعد أن لوّح إلى أسامة الذي أكمل المسير إلى قسم شرطة سيدي جابر ومن معه من شباب ونشطاء حقوقيين؛ اعتراضًا على تجاهل الشرطة لما اقترفته أيدي أراذلهم.

تدخلت الشرطة واعتقلت اثنين من النشطاء فيما فر البقية.

خرجت مي من الغرفة متبسمة تحمل الكتاب في يديها فأمسكت والدة أمير ذراعها واحتضنتها قائلة: "هل سكن قلبك؟".

تحولت ابتسامة مي إلى خجل، فأكملت: "احرصي على أن تحضري والدتك لنذهب إلى السيدة ليلى لنخفف عنها ونواسيها".

هزت مي رأسها متفهمة، ثم أمسكت بالكتاب أكثر وخرجت وما زال الخجل يعلو وجهها ببلاهة حب.

لم تغب كثيرًا، سويعات وعادت بصحبة والدتها، رأتهما والدة أمير من الشرفة فأشارت لهما، ثم دلفت إلى الداخل وغيرت ملابسها ونزلت لتقابلهما، ثم توجهن إلى منزل خالد، قابلهن أسامة فجأة مصفر الوجه يلهث فاقترين منه، شهقت السيدة صفاء: "ماذا جرى يا بني؟".

رد بأنفاس متهدجة: "اعتقلت الشرطة بعض من كانوا معي في الاحتجاج وفر البقية".

سألته مي: "هل تبعك أحد؟".

فردّ وهو ينظر إلى الخلف: "لا أظن". ثم أكمل: "إلى أين تذهبنّ؟".

ردت والدة أمير: "إلى والدة خالد".

- "حسنًا، سأغير ملابسي، ثم سأتبعكنّ".

وصلنّ إلى باب شقة السيدة ليلى فوجدنها تستمع إلى القرآن الكريم بحضور سارة وأخت خالد وبعض من جاءوا ليقدموا واجب العزاء، دلفنّ إلى الداخل بعدما استقبلتهن سارة وقمنّ بحضنها واحدة تلو الأخرى، الحزن يخيِّم على كل ركن بالمنزل، سكون عجيب وأجواء قاسية يتخللها أنين بعض الحاضرين، دقائق استغلتها والدة أمير والسيدة صفاء في التهوين على السيدة ليلى وإثلاج صدرها ببعض عبارات تسكين نفوس منفطري القلوب.

طرق أسامة الباب، قبل أن تسمح له سارة بالدخول ألقى السلام وقبّل رأس والدة خالد، ثم قال: "هلّا أتى أحد بقناة الأخبار فستبث الداخلية الآن بيانًا يخص ما حدث لخالد".

انتبهت السيدة ليلى وعلت دقات قلبها فيما سحبت بعض الهواء إلى صدرها، وحولت سارة إلى قناة الأخبار، لم يتمكنوا من مشاهدة البيان بأكمله لكن ما تلاه من أخبار يكشف ما حواه من ادّعاءات (جاري إخلاء سبيل المتهمين).

جالت الدموع في عيني السيدة ليلى فاقترب بخطوات حثيثة باتجاهها قائلًا: "لا تقلقي يا سيدة ليلى، عندي أخبار سارة، تبنى المحامي الذي أعمل معه القضية بنفسه وطلب مني مساعدته فيها، فقمت بإبلاغه بما حدث لخالد بالضبط وبما أخبرنا الطبيب الشرعي، فتواصل على الفور مع مركز لحقوق الإنسان وقاموا بالتشريح وتجهيز بيان يكذّب بيان الشرطة، لا أدري ماذا يحدث، ولكن الكثيرين من رجال الشرطة تواصلوا معي ودعموني وسهلوا الأمور على المحامي الذي أعمل معه حتى يكشف الحقيقة، الحقيقة يا سيدتي أن الأفعال المشينة لشخص سيء أو شخصين لا تنفي حقيقة أن أكثر الضباط شرفاء وأكثرهم تواصلوا معنا إما للعزاء أو للمساعدة، أحزن عندما ينسب لساني الجرائم للشرطة لمجرد شخصين ربما يكونا قد انتسبا لها زورًا".

* * *

تسارعت الأحداث بعد البيان المكذب لبيان الشرطة ما بين وقفات احتجاجية في الإسكندرية ثم في القاهرة تباعًا، وجد كل العقلاء وضحايا الشرطة من صيت قضية خالد فرصة لكشف الفساد الذي

تفشى في حكومة بأكملها إلى أن تنفست عائلته الصعداء بعد أن أخبرهم أسامة أن النائب العام قرر البحث في القضية من جديد وإعادة التشريح لبيان سبب الوفاة الحقيقي، بدأ كبار شرفاء الشرطة في الظهور وكشف الحقيقة، ثار الشباب لظلم لحقه، لكن كان إذا مر يوم بخطوة إيجابية تتبعه أيام بخطى سلبية مقرة أن لم تعلُ يد فوق يد الفساد بعد.

حزن أسامة ومن معه من نشطاء ومحامين وشباب بسيط حزنًا شديدًا عندما أعلنت محكمة المنشية حبس أحد النشطاء من مؤيدي خالد ستة أشهر لتعديه على ضابط شرطة، وطالبوا وقتها أن يأخذ القانون مجراه فيمَن سفكوا الدم كما يأخذ مجراه فيمن يبحث عن الحقيقة.

اتسعت دائرة الاعتراض بعدها فشهد مسجد القائد إبراهيم تجمع لقيادات القوة السياسية المختلفة، وطعن الدفاع في بيانات الداخلية التي تُفضي إلى إلقاء اللوم على خالد نفسه، وأن ما صنعه_ زعمًا_ من ابتلاع اللفافة هو سبب الوفاة.

هوت طرقات مفاجئة على صدر باب منزل خالد فقامت والدته مسرعة بعد أن أحاطت شعرها بطرحة، وفتحت.

- "أسامة! ماذا حدث؟!".

- "لا شيء يا سيدتي، لا تقلقي، هل تملكين شهادة إتمام خالد للخدمة في الجيش؟".

- "نعم بني إنها بالداخل، لمَ تريدها؟".

زفر بحزن: "وآاسفاه على أناس تطارحوا الآراء واتهموه بالتهرب من الجيش بدلًا من الاعتراف بحقه!".

أعادت النظر إليه قبل أن تدخل غرفة خالد قائلة: "وما العمل؟".

- "تولى مأمور جديد بنفسه القضية وشهد أن خالد بريء وقد أتم الخدمة".

لم تشأ إظهار الابتسامة، لكن قالت في نفسها: "ها هي الشرطة التي نعهدها تعود".

أحضرت الملف، ثم عادت وقالت بامتنان: "كم أنت مخلص يا أسامة، شكرًا يا بني على كل جهودك معنا".

رد قبل أن يذهب: "لن أصمت أو أكف عن هذا إلا بعد القصاص أو أن أهلك دون ذلك".

استمرت الوقفات الاحتجاجية واستمرت جمعيات حقوق الإنسان المختلفة في إصدار بيانات تؤكد طمس أصحاب القرار الحقيقة إلى أن هدأت الأمور نسبيًا بعد حبس أميني الشرطة أربعة أيام على ذمة التحقيقات بتهمتي استعمال القسوة مع مواطن بعد التهجم عليه دون وجه حق.

تم افتتاح الكثير من مراكز الدفاع عن حقوق الإنسان باسم الشهيد خالد سعيد إلا أن كل تقدم يتبعه تأخر أكثر، وكل حركة

لإقامة العدالة يقصمها ظلم وفساد، كإعلان المحامي العام للجنة التي أقامها النائب العام للمرة الثانية براءة أميني الشرطة.

مؤامرة متفشية، جريمة يتسابق فيها الكبار لتلويث أيديهم أكثر كأنها هوايتهم المفضلة، لكن لمرة أخرى تعود جمعيات حقوق الإنسان المحلية بل والدولية للتشكيك في البيانات التي يصدرها المسئولين إما لتركهم حقائق مدرجة وواضحة كالشمس وإما لتجاهلهم شهادة شهود العيان الذين أقسموا على كتاب الله صدقًا.

اتشّحت عروس البحر الأبيض المتوسط بالسواد، وامتعض المعترضون والمتظاهرون لما يرونه من ظلم بيّن، ولما لاقاه شخص بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب على يد من اتسموا بوحشية ضاهت وحشية ما فعله أبناء يعقوب بيوسف. كناه الأكثرون بـ "شهيد الطوارئ"، فيما رددت شرذمة قليلة بأنه "شهيد البانجو"، لكن أجمعت البشرية أن من أبسط حقوق الإنسان أن يُطلب منه بكل هدوء استقلال سيارة الشرطة ليتم التحقيق معه في بناء مخصص لذلك بكل منطق وعقل، وليس في الشارع بكل وحشية ومكر.

❋ ❋ ❋

تونس

تابع أمير كل ما يتجدد في قضية صديقه خالد عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وبالأخص الصفحة التي أنشأها على الفيس بوك مع نشطاء آخرين لنشر ملابسات القضية وكل ما هو جديد بعد أن انتزع فكرة العودة إلى مصر من تفكيره بفضل خاله ومي، عاد للعمل مع خاله في المحل بعد فشله في إيجاد عمل يناسب شهادته الجامعية، كان سعيدًا جدًّا بما حدث لأميني الشرطة من حادثة فتكت عظام أجسادهما عدالة من السماء نظير ما أوقعا به من قبل دون وجه حق، بل ووجدها فرصة للثأر منهما.

من حسن حظه أن تم نقلهما إلى المستشفى الذي كان به، فذهب إلى هناك وسأل عن الممرضة مريم، التي قابلته بابتسامة.

- "أهلًا يا أمير، حمدًا لله على سلامتك".

- "مرحبًا يا مريم، كيف حالك؟".

- "بخير".

اقترب أكثر، وقال بصوت منخفض: "هلا ساعدتني؟".

توجست مريم، فأردف أمير: "تعرض أمينا شرطة لحادث منذ أيام قليلة، هل ما زالا هنا أم تم نقلهما؟".

ردت مريم: "ما يزالان هنا، فحالتهم سيئة لا تسمح بالنقل".

- "أريد الذهاب إلى غرفتهما لو سمحتِ".

- "ما الأمر؟ لا أرى في عينيك خيرًا".

زمجر كازًا على أسنانه: "لا شأن لكِ".

فردت مريم: "كيف؟! أخبرني كي أساعدك".

صمت قليلًا، ثم قال وهو يحك أنفه ناظرًا للأعلى: "هما السبب في دخولي المستشفى، فقد اعتديا عليَّ بالضرب".

- "الله انتقم لك، فلا داعي لارتكاب أي أفعال أو حماقات قد تسبب المشاكل، اذهب أرجوك".

- "لا تقلقي، لن أتعرض لهما بسوء".

- "وحتى إن وددت التحدث لهما فلن يسمعا، فهما نائمان الآن".

ابتسم ابتسامة مريبة، وقال في نفسه: "نائمان! هذا أكثر مما أريد"، ثم أعاد النظر إليها قائلًا: "مريم.. أحتاج مساعدتك حقًا".

زفرت مريم قائلة: "حسنًا، ولكن أرجوك على الأقل لا تسبب لي المشاكل، إنهما في الطابق الثالث، في الغرفة المواجهة للمصعد".

شكرها ثم ذهب إلى المصعد وضغط زر الطابق الثالث، ظل ناظرًا لها حتى أُغلق باب المصعد، ثوان ووصل المصعد وجهته، خرج واقترب على مهل ونظر من زجاج الغرفة فوجد امرأة وطفلًا صغيرًا بالداخل يجلسان على مقربة من سرير أحدهما، تضايق ولم يعرف ماذا يفعل، لكنه كان سعيدًا أنهما حقًا نائمان، سيسهل هذا ما يسعى إليه إن استطاع الولوج إلى الغرفة، جلس على كرسي مجاور للغرفة يفكر كيف يُخرج من بالداخل، ثوانٍ وحدث ما قطع تفكيره، خرجت السيدة تجر الطفل خلفها وتوجهت إلى المصعد، دلف إلى الغرفة وغطى وجهه بسرعة بالوشاح الذي كان يحيط برقبته بطريقة تخفي ملامحه بشدة، أخرج بعدها قطعة زجاج صغيرة بجانب حاد وأمسك برأس الأول ثم جرح ناصيته كاتبًا "أم"، استيقظ الأول وصرخ فانتبه الثاني وفتح عينيه في أرق ناظرًا حوله، باغته أمير وأمسك برأسه هو الآخر ثم شق مسام ناصيته مكملًا "ير".

لم يجد ألفًا ولا ياء ولا ميمًا بشكل واضح، مجرد جروح بالناصية تستلزم نظرة دقيقة لفك طلاسمها، خرج من الغرفة مسرعًا بعد أن علت الأصوات الصادرة من الأجهزة التي تحيط بالأسرة مخبرةً أن مكروهًا حدث لمن تحمله الأسرّة وسط صراخ وسب، توجه إلى المصعد فوجده بالأسفل مشغولًا، هرول ناحية السلالم ونزل بسرعة، ارتبك عندما رأى شرطية على السلم في طريقه وبصحبتها المرأة والطفل

اللذين كانا منذ قليل في الغرفة، استوقفته الشرطية وقالت: "لمَ أنت ملثم بهذه الطريقة يا أنت؟".

ارتبك لكنه تدارك الأمر وأمسك بفمه وسعل، تراجعت الشرطية للخلف خشية أن تصيبها عدوى، وصرخت: "هيا ابتعد! ابتعد"، وبالفعل ابتعد بعد أن تنفس الصعداء وخرج من المبنى بأكمله، ثم ألقى بالوشاح في القمامة قبل أن يستقل سيارة أجرة، وكأن شيئًا لم يكن.

إذا وضعت سقفًا للحرية

فلا تنعت ردود الفعل بـ "الإرهاب".

❋ ❋ ❋

صباح يوم الجمعة

17 من ديسمبر لعام 2010

خرج من منزله جارًا لعربته شبه الممتلئة بالفواكه والخضروات بين الأزقة متوجهًا إلى السوق ليزاول عمله اليومي، لا يدور بخلده سوى بعض اللحظات السعيدة التي يقضيها يوميًا بصحبة أمير في المحل، كم أحب العمل منذ قدومه إلى تونس لعدة أشهر مضت! ما أروع الحياة عندما تمنحك صديقًا مخلصًا إذا ناصفته فرحك زاد وإذا شاركته حزنك قل، لا تنتظر كلمات أكثر فلا سبيل لوصف الصداقة بغير هذا.

قطع شروده صوت من الخلف ينادي بكلمات خشنة ذكّرته لجزء من الثانية بمسئوليته تجاه أسرته: "توقف يا أنت! صادروا هذه البضاعة".

التفت إلى الخلف فوجد رجلين بزي شرطي يتجهان نحوه وخلفهما شرطية تأمرهما.

اقتربت الشمس واخترق ضوؤها ثقبًا في جدار الزقاق على شرطي يمسك بطارق الناظر إلى الشرطية نظرة استنجاد ورحمة وشرطي آخر يصادر البضاعة من العربة، مر عم طارق بالصدفة بعد أن أحضر طعام الإفطار من السوق فرأى ما يحدث، اقترب من الشرطية راجيًا أن تتركه وشأنه فما كان منها إلا أن صرخت فيه: "ابتعد وإلا صادرتك كالبضاعة".

عاد إلى السوق يجري جارًا خلفه قدمه التي لم تعد تقوى على الجري بعد أن فتك بها المرض، بحث عن مأمور الشرطة الذي رآه منذ قليل يتفقد المحلات، سأل فدله أحد التجار إلى منتصف السوق، وجد المأمور هناك فتوقف أمامه يلهث ويلتقط الأنفاس، أمسك المأمور بكتفه، وقال: "ماذا بك؟".

- "جئت طامعًا في عفوك ومساعدتك سيدي".

- "ماذا بك؟ تحدث".

- "أوقفت الشرطية ابن أخي في أحد الأزقة هناك عند أول السوق لتصادر البضاعة من عربته، أستحلفك بالله سيدي أن تأمرها تتركه وشأنه فالعربة مصدر عمله ورزقه الوحيد لإعالة أسرة بها تسعة أشخاص".

- "حسنًا، لا تعبأ، ما اسمه؟".

- "طارق".

أمسك المأمور الجهاز اللاسلكي واتصل بالشرطية فأجابت على الفور فقاطعها قائلًا: "تعالي إلى هنا الآن فارغة اليدين".

ردت الشرطية: "عذرًا يا حضرة المأمور! ماذا تقصد؟".

- "أقصد ما تفعلينه الآن، اتركي الشاب وعربته ولا تتعرضي لهما بأي سوء، فوالله استيقظت مبكرًا وأتيت هنا لأحارب جشع التجار وليس كفاح الفقراء". قالها المأمور ثم أنهى الاتصال، ورمق عم طارق بابتسامة ودودة، شكر العم المأمور شكرًا جزيلًا ثم همّ بالعودة، اشتد حنق الشرطية فحاولت كتمان ما بها من غيظ، انتزعت نظارتها الشمسية وقالت واضعة عينيها إلى الأرض: "اتركاه"، ثم ذهبت، خطوات قليلة ثم عاودت الشرطية، جست طارق بعينيها فوجدته عاكفًا على هندمة البضاعة فوق العربة ولم ينتبه لنظراتها التي لم تحمل غير الضيق تفسيرًا.

دلف إلى السوق بعربته متسائلًا ماذا فعل عمه بعد أن هرع إلى السوق.

فصل بينهما بعض المارة فاكتفى بالنظر إليه بسعادة والتربيت بيده على صدره كإشارة شكر وامتنان لعمه الذي أكمل طريقه إلى البيت.

* * *

بعدها بسويعات لم يكن يعلم بعد ما حدث، جلس أمام المحل يراقب المارة وينظر في الوجوه بحثًا عنه إلى أن وجده، سقطت عيناه من بعيد عليه يقف بجوار عربته يتسامر مع الزبائن ويبتسم لهم بود،

نادى أحد العمال على أمير طالبًا للمساعدة فدلف إلى الداخل وعندما عاد وجد سيدة تنهر طارق بصوت عال، أسرع ناحيته لينظر ماذا يحدث فتصلبت قدماه عندما دقق النظر وأدرك أنها الشرطية التي قابلها منذ أيام قليلة في المستشفى عند السلم.

تراجع للخلف قليلًا، فيما شرعت السيدة في حمل السلال من العربة إلى سيارتها، انتفض طارق وصرخ: "لمَ تفعلين هذا؟".

فردت بصوت عال: "لا مكان للباعة المتجولين هنا".

اقترب أكثر منها وأجاب بصوت يملؤه الضيق: "لماذا تركتني هذا الصباح أُكمل عملي إذن؟ أنا على الأقل أتجول بحثًا عن الرزق ولا أتجول خلف أشياء أخرى، تعترضين طريقي لأني إنسان بسيط لا أملك سوى هذا دخلًا...".

لم تتركه ليكمل دفاعه وصرخت فيه بعد أن صفعته: "كفى! ارحل".

علت همهمات البعض اعتراضًا وزجروها بأعينهم، حينها تدخل أمير واقترب منها يصرخ: "بأي حق وبأي سلطة مخولة لكِ صفعتيه؟".

فردت: "وما شأنك أنت؟ ابتعد". ثم أجهزت على باقي السلال ووضعتها في السيارة ثم رحلت قبل أن تؤمر معاونيها بمصادرة العربة أيضًا.

تطاير الشرار من عينيه حنقًا على ما فعلته من صفع وإهانة، احتضنه أمير وذهب به إلى داخل المحل علّه يهدأ، دخل إلى المحل وأمير

يحيطه بذراعيه وتوجها ناحية الحاج إبراهيم الذي كان يتحدث إلى أحدهم عبر الهاتف ولم يعرف بعد ما حدث، وجه طارق نظره إليه وسأل بحشرجة تملؤ صوته وجسمه يرتجف غضبًا: "أما زلت على اتصال بمأمور قسم الشرطة القديم؟".

رأى غضب طارق، فأجاب: "لا يا بني، لقد انتقل إلى منطقة أخرى، وعندما حدث ما حدث لأمير حاولت الاتصال به مرات عديدة ولكن هاتفه كان دائمًا خارج نطاق الخدمة، ما الأمر؟".

سرد أمير ما حدث، بعدها أمسك الحاج إبراهيم بذراع طارق، وقال: "اجلس يا بني ودعنا نمعن التفكير قبل أخذ أي إجراء أو خطوة".

- "لا أريد الجلوس، قسمًا بربي لأحرقن نفسي إن لم تعاقب على ما فعلت بي".

ابتسم أحد العمال باستهزاء، فرمقه أمير بغضب حتى تقلصت ابتسامته وابتعد، رد أمير بعدها بهدوء: "الله يسمع ويرى".

- "وأنا لا أريد أن يراني الله مكتوف الأيدي غير قادر على مقاضاة امرأة سلبت مني عزة نفسي بعد أن صفعتني على رؤوس الأشهاد".

لم يلق ردًا فاستطرد: "ولو قتل أحد أبناء المسئولين الكبار فقيرًا مثلي ما كانت لتجرؤ على صفعه هكذا، يا لها من ضلال! تترك مهربي البضاعة المسرطنة يمرحون وتحارب مثلي، لمَ تقتصر إذن المعاملة الحسنة على أناس دون أناس؟! أرجوكم أخبروني، سأفقد عقلي، ألسنا بشرًا جميعًا؟!".

رد أمير بلا مبالاة: "فقط لا تعبأ".

سقط لعابه غضبًا وتسابقت الدموع إلى ذقنه الحليقة صارخًا: "كيف لا أعبأ؟! أخبرني! هل وقوفي بجوارك هنا سيعيد حقي، إنها مسألة كرامة، وأنا لن أترك كرامتي مبعثرة هكذا على أرضية السوق، أخبرني هل أخذت بثأرك منهم عندما فضّلت الصمت؟".

أحس أمير بقصده فوأدها في نفسه، رأى الحاج إبراهيم الضعف والخجل في عيني أمير فوقف موجهًا كلامه إلى طارق: "أنا من غضنته عن التفكير في الأمر بطريقتك هذه، لأنها ستسبب المشاكل لا أكثر، لكن صدقني الدهر متقلب، والحقوق مردودة عاجلًا أم آجلًا".

رد طارق: "ما المشكلة في شخص سيقاضي أحدًا من الشرطة لكي يسترد حقه؟".

زفر الحاج إبراهيم ورد بطول بال: "اذهب وقاضها لكن لا تحاول أن تتجاهل حقيقة أن حقك في أعينهم هو مجرد استرداد العربة لا أكثر".

صرخ، ثم ركل الحائط انفعالًا وهرع إلى الخارج، خرج أمير في أثره ينادي: "طارق.. انتظر".

اختفى كشبح يحرم على عيني أمير رؤيته، بحث يمينًا ويسارًا دون جدوى، فعاد إلى المحل يضرب الكف بالآخر قلقًا بعدما رحل والغضب باديًا على وجهه.

ذهب إلى قسم الشرطة يبحث عن المأمور فأخبره أحد الحراس هناك أن المأمور ليس بالداخل.

- "ليس بالداخل! كيف؟!".
- "لا أدري".
- "متى سيأتي إذن؟".
- "لا أعلم".

امتعض من ردود الحارس غير المسئولة ففضّل الانتظار بالخارج لعلّه يجد المأمور أو أي شخص برتبة عالية يتبنى مشكلته، حاول الوصول إلى الكثيرين من المسئولين ولكن دون جدوى، كان يرى في عيون الجميع اللا مبالاة، ذهب بعد ذلك إلى مبنى البلدية ولكن دون فائدة أيضًا، فخرج من المبنى وتغيب قليلًا ثم عاد وبيده اليسرى زجاجة من مادة (الثنر)، ووقف في منتصف الطريق المؤدي إلى مدخل مبنى البلدية، ثم رفع الزجاجة عاليًا ليُهوي عليه محتواها حتى فرغت، أخرج من جيب بنطاله الخلفي قداحة بيد ترتجف وعقل مشوش، لم تطاوعه أصابعه في أول مرة، ضغط على القداحة، قرر إعادة التفكير في الأمر فلم يجد مفرًا، ضغط مرة أخرى فلم تلفظ شرارتها المنتظرة كأنها تعيد التفكير معه قائلة: "لا تعبث بي يا أنت"، صرخ طاردًا الأصوات التي تدور بخلده، وضغط بقوة أكثر هذه المرة!

* * *

نظر الحاج إبراهيم إلى ساعة الحائط المواجهة إلى مكتبه والتي أعلنت مرور ثلاث ساعات منذ غياب طارق، أعاد النظر إلى أمير فرأى أن الحزن والقلق قد بلغا به مبلغهما، فقام فجأة مناديًا: "يا عبد الله".

جاء عبد الله مجيبًا، فسأله: "هل تعلم أين يقطن طارق؟".

- "لا يا سيدي".

- "إذن ابحث لي عمن يعلم وأرسله فورًا إلى منزله ليجس لنا أخباره"، قالها ثم رمق أمير بنظرة مفادها "اتبعني".

جابا السوق بحثًا وسؤالًا عنه لكن لم يعلم أحد أين هو ولم يعطهم أحد أي معلومة غير أن شرطية صفعته منذ سويعات ورحلت.

سئم الحاج إبراهيم، فقال: "هيا نعد إلى المحل فربما عاد أو وجده أحد العمال".

هز أمير رأسه اعتراضًا.

- "لو عاد أو وجده أحد لكانوا اتصلوا بنا على الفور".

- "ماذا سنفعل إذن؟".

- "لمَ لا نذهب إلى قسم الشرطة؟ أتذكر أنه كان يريد مقاضاة الشرطية فأين سيذهب إذن إن لم يكن بالسوق؟ هلا ساندته أرجوك واحتويته ليرجع إلى صوابه".

أوقف سيارة أجرة وسأل السائق أن يوصلهما إلى قسم الشرطة، وبينما هما في الطريق نظر الحاج إبراهيم من النافذة التي بجانبه فرأى جمعًا من الناس يحيطون برجل يتطاير اللهب منه ويصرخ بصوت مرعب ويحرك جسده حركات مجنونة من شدة الألم.

صرخ في السائق: "توقف!".

قطع هذا شرود أمير في النافذة الأخرى فاعتدل ونظر إلى جهة خاله فرأى ما يحدث، علت نبضات قلبه وامتلأ صدره بالاضطراب، ثم فتح الباب وقطع خطوات حثيثة باتجاه الجمع، ثم صاح بهلع: "يا للهول! إنه طارق! طارق!".

رأى أمير أحدهم يقترب حاملًا طفاية حريق فالتقطها منه ثم وجهها إلى طارق، كانت الطفاية شبه فارغة ولم تغن شيئًا فألقاها أرضًا ثم جثا يحيط بكفيه حبات التراب التي شحت وقتها على الأرض ويلقي بوهن بها على جسد صديقه الذي أمسكت النار به في محاولات يائسة لا منفعة منها، خلع معطفه ثم أمسك يروح ويجيء خلفه ويضرب بالمعطف جسده لعلها ضربات تخمد النيران وتذب عن صديقه الآلام، دقائق وهوى طارق أرضًا بعد أن أكلت النار ملابسه وجل جسده، أخرج الحاج إبراهيم هاتفه واتصل بالإسعاف وأخبرهم بمكان الحادث وأنهى المكالمة قبل أن يقترب أحدهم من أذنه ويهمس: "لقد فعلتها قبلك ثلاث مرات، اتصلت بالإسعاف ثم بالشرطة ولم يحضر أحد حتى الآن، يبدو أن وقودهم نفد أو تطاير الهواء من أطر سياراتهم!".

ركع بجواره بركبتين تمسان الأرض وبدموع تسيل على الخد وبلسان لا يعلم ماذا يقول وماذا ينطق، لكن بعقل يفقه أنين صديقه وصراخه، ويفقه أيضًا أن لن يجدي البكاء نفعًا كما لم يجدِ من قبل.

وصلت الإسعاف بعد ساعة ونصف من إضرامه النار في جسده ونقلته إلى مركز مخصص لمعالجة الحروق والإصابات البالغة، أصر

أمير على مرافقته داخل سيارة الإسعاف، فيما عاد الحاج إبراهيم أدراجه حاملًا لأخبار ستفطر لا محالة قلوب أسرة طارق.

سافرت الأسرة بأسرها بصحبة الحاج إبراهيم إلى المركز حيث يرقد طارق أو ما تبقى منه، رمقوه جميعًا بنظرات لا تحمل غير الأسى والحزن عنوانًا، فيما ظل يبادلهم دموع الندم والألم وأنين يخترق آذانهم فيمحو صمت المكان إلى أن أشفق الطبيب عليه وأعطاه منومًا وقاتلًا للألم لكي يغفو ويترك عالم الآلام هذا قليلًا.

طلب الطبيب من الحضور الخروج ليتمكن من مداواة ما يمكن مداواته فتراص الجمع خارج الغرفة بعيون اغرورقت بالدموع تأثرًا، ذهب أمير إلى والدته وقال مصبرًا إياها: "لا تقلقي سيدتي، سيكون بخير".

رفعت السيدة رأسها إلى أعلى فكشفت عن عينين احمرتا من كثرة البكاء، لم تتبين ملامح المتحدث جيدًا فقد ارتوت رموشها بالدمع، اكتفت فقط بالرد بضعف: "كيف بني؟! ألا ترى ما حل به؟!".

صمت للحظات فلم يجد إجابة تعالج فقدان والدة طارق الأمل إلا: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم".

- "صدق الله العظيم، شكرًا على مرافقتك طارق، نَعِم الله بك عينا بني".

- "بارك الله لكِ سيدتي، إنه أكثر من صديق ولن أعود إلا معه كما جئت".

قاطعتهما ممرضة كانت تقف بجوارهما الحديث قائلة: "أخشى أنه لا مكان هنا إلا لاثنين فقط".

عمّ السكون ولاح التجهم في وجهه قبل أن تباغته الوالدة بسؤال.

- "أأنت أمير؟".

فأجاب بسرعة: "نعم".

- "أخبرني طارق عنك الكثير حتى أصبحت بمثابة ابن لي، أريدك أن توصل إخوته وإخوتك إلى المنزل بصحبة عمهم وأنا سأنتظر هنا بصحبة سالم بني، ولكن احرص على العودة في أقرب وقت بني فسأحتاج إليك".

- "لا تقلقي سيدتي، سأعود".

عاد بصحبة خاله وعم طارق وباقي الأسرة إلى سيدي بو زيد وذهب كل إلى منزله بعد سفر ويوم شاق أنهكهم وأوهنهم.

استيقظ على أصوات بالخارج في الشارع، نظر في الساعة فوجد أنه تأخر على والدة طارق فقد وعدها بالعودة، لم يعبأ وقتها لما بالخارج، جهز نفسه ثم همّ بالخروج ففاجأه اتصال من خاله، فرد على الفور: "لن أتمكن من المجيء للعمل اليوم، سأذهب إلى طارق ووالدته".

- "بل تعال إلى المحل بني، فوالدته أمامي الآن تسأل عنك".

- "ماذا؟! أنا قادم".

دلف إلى المحل مرحبًا بها.

- "مرحبًا سيدتي، لقد كنت على وشك الذهاب إليكِ".

ردت السيدة بهدوء: "حمدًا لله أنك لم تذهب، تذكرت أن عم طارق أخبرني عن مأمور مركز الشرطة هنا، وعن جملته التي ما زالت تتردد في مسامعه إلى الآن (جئت لأحارب جشع التجار وليس كفاح الفقراء)، أظن أنه سيهتم بقضيتنا".

ابتسم: "وقع بكلام معسول".

- "لا، ليس كلامًا معسولًا، لقد قالها للشرطية أمامه عندما أوقفته في المرة الأولى صباح البارحة".

- "هل تقصدين أن الشرطية التي صفعت طارق قد تعرضت له من قبل في نفس اليوم؟".

- "نعم، وعندما أوقفها المأمور عادت بعد ذلك لتنتقم، وهذا ما أحتاجك أن تساعدني فيه يا أمير، ترافقني إلى مركز الشرطة لأقدم بلاغي وتدلي أنت بشهادتك".

- "لا مشكلة لدي سيدتي، هيا بنا".

قام الحاج إبراهيم، وقال: "سأصاحبكما، هيا".

- "ابق أنت، لا أريد أن أشغلك عن عملك، سنتولى الأمر أنا وأمير، وآسفة مجددًا على جعله يتغيب عن العمل ثانية".

- "لا تعبأي سيدتي"، قالها الحاج إبراهيم ثم جلس بعد أن خرج أمير برفقة أم طارق متجهين إلى مركز الشرطة.

قابلا المأمور وشرحا له ما حدث بالتفصيل، استنكر المأمور ما فعلته الشرطية ووعد الوالدة أن يأخذ الأمر على محمل الجد، وأن حق ابنها لن يذهب هباء منثورًا.

خرجت والدة طارق من مكتب المأمور بعد أن شكرته وبينما يتبعها أمير ويغلق خلفه الباب أصابت عيناه عيني أحد أميني الشرطة اللذين اعتديا عليه من قبل، تتحرك قدم وتجر خلفها قدمًا أخرى بجبيرة تغطي معظمها، ووجه لم يخل من الكدمات وضمادة تغطي الناصية، رمق أمين الشرطة أمير بعدم مبالاة ثم أكمل طريقه، فهدأت دقات قلبه بعد أن كاد يُغشى عليه من فرطها وقال في نفسه وابتسامة بلهاء تعلو وجهه: "يبدو أنهما اعتديا على الكثيرين قبلي فلم يضعاني في حسبان أني من فعلت بنواصيهما هذا، تُرى أي نصف من اسمي تحمله هذه الناصية الحمقاء؟".

رأى أمير والأم في ساحة بالقرب من مركز الشرطة حشدًا من الشباب يرفعون لافتات ضد البطالة والظلم وأشياء أخرى سيتناساها الحشد على الأرجح مع أول طلقة من قوات الأمن وستسقط اللافتات أرضًا تحت أقدامهم عند أقرب قنبلة غاز كأن لم تكن، عادا إلى المركز الذي يُعالج فيه طارق ووصلا إلى غرفته فنادت والدته على سالم الذي غلبه النعاس أمام الغرفة: "سالم! سالم! استيقظ!".

استيقظ سالم، فسألته: "هل طارق نائم أيضًا؟".

رد سالم وهو يمسح لعابًا سال إلى حافة فمه: "لا أدري! حقنته إحدى الممرضات بمسكن بعد رحيلك وطلبت مني الخروج لكي يتمكن من النوم، فلا أدري أما زال نائمًا أم لا".

دلفت والدته إلى الغرفة وتبعها أمير ثم سالم، ترقرق الدمع في عينيها وجلست بجوار ولدها الذي ينذر سوء حالته يومًا بعد يوم من عواقب صحية وخيمة، اهتز هاتف أمير فأخرجه ثم أجاب الاتصال خارج الغرفة بعد أن أشار لأم طارق بشفتيه دون صوت لكيلا يوقظ طارق اتصال خاله.

سأله خاله بقلق: "هل ما زلتم في مركز الشرطة؟".

رد أمير: "لا، نحن الآن بصحبة طارق، لمَ؟!".

- "ألم تحيطا علمًا بما جرى؟".

- "لا! ماذا حدث؟".

- "انطلقت مسيرة من المنطقة التي يسكن بها طارق تضامنًا معه".

لاحت ابتسامة على وجهه ولكنها انقشعت فجأة عندما تذكر أن قضية خالد بدأت على نفس الغرار، وها هي ما تزال قيد التحقيق بشكل أوسع ويبدو أنها في طريقها إلى الكتمان ثم التجاهل.

تنهد بحزن.

- "نعم رأيت بعضهم ولكن بالقرب من المركز هناك، أتمنى أن تغدو الأمور على ما يرام".

دلف إلى الغرفة مجددًا فوجده قد استيقظ فنظر إلى والدته بفرح، وقال: "أتذكرين بعض الشباب الذين تجمعوا بالقرب من مركز الشرطة بينما كنا عائدين؟".

- "بلى".

- "إنهم شباب سيدي بو زيد، خرجوا تضامنًا مع طارق، وشرعوا في المطالبة بحقوقهم أسوة به".

انفرجت أساريرها ثم اقتربت من ولدها وقبّلت ضمادة غطت ذراعه الأيمن، فيما أقبل أمير باتجاهه ثم سحب كرسيًا وجلس على مقربة شديدة منه، وقال

بهدوء أضفى على الكلمات عمقًا أكثر: "ما فعلته البارحة يا صديقي ألهم المئات اليوم وخرجوا جميعًا يطالبون بحقك وحقهم في عيش هانئ".

زفر طارق بصعوبة: "حقًا؟!".

- "بلى، وسأذهب الآن وأنضم إليهم، فما منعني من المطالبة بحق خالد صديقي لن يمنعني من مناصرتهم، ما نيل المطالب بالتمني ولا ضرر من مطالب ركائزها العدل".

- "وما علاقة خالد بما يحدث؟".

- "خالد صديقي مشعل فتيل الاحتجاجات الأخيرة في مصر، ألم تعلم بمقتله أنت الآخر؟".

- "بلى، لقد علمت قبلك، ولكن كنت في حالة سيئة ولم نخبرك، ولكن ما علاقته بما يحدث الآن في الشوارع التونسية؟".

- "نفس علاقتك يا طارق بما يحدث في مصر، أنتما الاثنان ضحايا لفساد وظلم تفشى لسنوات".

- "لا تخبرني أن خالد هذا هو من كُني بـ "شهيد البانجو" أو المخدرات، لا أعلم!".

- "تهمة قذرة لُفقت له وصدقتها أنت كمشاهد لإعلام تغييب العقول، كما ستنكر الشرطية التي صفعتك فعلتها ويساندها الإعلام وربما يتصدر الأخبار الآن أن مختلًا عقليًا أضرم النار في نفسه".

لاحت إمارات التعجب على وجه طارق فأكمل أمير: "لهذا يجب أن أكون بينهم الآن، لأُعلمهم أكثر عنك، لندافع عن حقوقنا جميعًا كيدٍ واحدة مستغلين ما حدث لك، قبل أن تبدأ الأيدي الخفية في إسقاط شباك التعتيم ويذهب كل شيء سُدى".

عاد إلى سيدي بو زيد، ذهب إلى السوق فوجد أن معظم المحلات قد أغلقت أبوابها في وقت مبكر وحالة من الاضطراب تحيط بالأجواء.

كان وقتها الحاج إبراهيم يغلق محله أيضًا بعد أن رحل أكثر العمال بسبب التداعيات المحتملة الوقوع، اقترب من خاله في تعجب، وقال: "ما الأمر؟!".

رد خاله: "حمدًا لله أنك اتيت، هيا ساعدني لنغلق الباب ونذهب، كفى اليوم".

- "ما زال الوقت مبكرًا!".

- "ما حدث من اشتباكات بين قوات الأمن والمتظاهرين بالقرب من هنا لا ينبئ بخير".

- "اشتباكات! تبًا! أين المتظاهرون الآن؟".

- "لا شأن لنا".

- "بل لا شأن لك، فالشأن شأني وشأن صديقي".

رمق الحاج إبراهيم أمير بحنق فهمّ أمير بتركه والذهاب فأمسك بيده، ثم صرخ فيه: "أنا والدك هنا، وعندما أقول لا شأن لنا، كل ما عليك فعله هو الإذعان، أرى في عينيك نية الالتحاق بهذه الاحتجاجات، ولكن صدقني لن تذهب من هنا إلا للبيت معي". ثم ترك يده واستطرد: "كم مرة يجب عليّ أن أخبرك أن هذا البلد ليس بلدنا، انظر إلى العواقب يا أمير لتسلم من النوائب".

رد أمير: "أنت منعتني من قبل من العودة لمصر لمؤازرة قضية صديقي، ولن تمنعني ثانية".

تقلصت ملامح الحاج إبراهيم، ثم أمسك بتلابيبه، وقال: "بلى، سأمنعك، وإن تجرأت وعصيت ما قلت لن أبقيك في هذا البلد ليوم آخر، هيا أمامي إلى المنزل، كفى هراء".

كز أمير على أسنانه غيظًا وعض على شفته السفلى بعد أن مرت فكرة بعقله فعاد إلى المنزل، أغلق خاله المحل بسرعة وتبعه بعدم طمأنينة، يعلم أنه ليس من السهل كبح جماح أمير وإرجاعه عن فعل شيء يريده.

نام بعمق واستيقظ في اليوم الثاني قبيل الظهر على أصوات مسيرة تمر بالشارع المجاور للمنزل، تساءل في نفسه: "لمَ لم يوقظه خاله مبكرًا كعادته ليرافقه إلى المحل؟!".

خرج فوجد خديجة بالخارج تتناول الإفطار وتشاهد التلفاز، ابتسمت له، وقالت: "هيا نتناول الإفطار سويًا".

بادلها الابتسام، ثم قال: "حسنًا، أنا قادم، ولكن أين والدك؟".

- "ما زال نائمًا، أخبرني أنه أعطى اليوم عطلة للعمال، منها ليستريحوا ومنها لعدم الاختلاط بالمظاهرات خشية أن تمر بالسوق كما مرت بالأمس".

دخل الحمام وألقى ببعض الماء على وجهه، ثم عاد فسألته خديجة: "تُرى أين الإعلام مما يحدث في الشوارع الآن؟!".

صمت قليلًا، ثم أجاب بعد أن استلذ وابتلع أول قضمة من قطعة خبز تحوي جبنًا وزيتونًا: "هذا إعلام الدولة وليس إعلام الشعب يا خديجة".

أُعجبت خديجة برد أمير الذي أكمل تناول الإفطار بنهم دون أن يعقّب ودون أن يلتفت إلى الشخص الممسك بلوحة بالتلفاز تتوسطها رسمة لطبقات القشرة الأرضية والتي عندما تحتك ببعضها البعض تصدر أصوات غريبة مخيفة كالتي انتشرت هذه الأيام في بعض البقع التونسية.

أنهى طعامه، ثم دخل غرفته وخرج يهندم ملابسه، فسألت خديجة: "إلى أين؟".

أدار وجهه، ثم ابتسم لها، وقال: "إلى طارق لأطمئن عليه وسأعود سريعًا، هل تريدين شيئًا من الخارج؟".

هزت خديجة رأسها نفيًا، ثم شكرته فخرج بعد أن ألقى السلام.

على غير ما قال، كانت وجهته إلى المظاهرات، انضم إلى ذيل المظاهرة، وعندما التمس سلميتها أسرع الخطوات وتخطى الرقاب حتى وصل إلى مقدمتها حيث تعلو لافتات تندد بالنظام، ألقى أحدهم بلافتة إليه، توجس خوفًا في البداية من رفعها، ثم لم يجد مفرًا خاصة بعد نظرات من ألقاها الحادة.

اتجه المتظاهرون إلى قسم الشرطة واعتصموا أمامه مطالبين بصخب عزل الحكومة وتحسين الأوضاع المعيشية الرديئة، بدأت قوات الأمن في اختراق التجمع واعتقال العشرات، ارتعد ثم عاد إلى الوراء حتى انفصل عن التجمع وأخذ يجري بعد أن ألقى بلافتة (يسقط النظام)، انتبه أحد الجنود له فتبعه.

ابتعد أمير عن الجمع، ثم وقف ينظر من بعيد فرأى أحد الجنود يقترب منه فهرول وقتها إلى داخل تجمع سكني، ثم أخذ يقطع الشارع بعد الآخر إلى أن انتهى إلى زقاق مقطوع لا سبيل فيه إلا العودة، أصابه الذعر فالتفت إلى الوراء ثم أسند ظهره إلى الحائط ووقف مستعدًا لظهور الجندي في أي وقت، بدأت السماء في إمطار رذاذ وقتها وظل يرقب السكون في حذر كأن هناك شيئًا لا يُرى إلى أن مر ما يقرب من عشر دقائق ولم يظهر أحد، عاد بهدوء ثم نظر إلى آخر زقاق فلم

يجد أحد يتبعه، فضّل أن يبقى متربصًا بجوار أحد الجدران بعض الوقت خشية أن يكون قد تبعه الجندي كل هذه المسافة ويحوم في المنطقة بحثًا عنه، قرر بعد دقائق معدودة العودة إلى المنزل لكن ظل الخوف يعتليه إلى أن رآه خاله يدخل من باب المنزل وقرأ الفزع في عينيه فاقترب منه، وقال بهدوء يليق بحكمته: "أخبرني من أي يُفترض أن أقلق أكثر، من الخوف في عينيك وشحوب لونك كأنك عاينت الموت، أم من فؤاد يصرخ بأنك انضممت للمظاهرة؟".

تهته أمير فصفعه خاله، وصرخ: "لن أسمح لأخرق مثلك أن يهدم سنوات قضيتها أنا وعائلتي هنا في سلام، إن ذهبت إلى مظاهرة ثانية فلا تعد إلى هنا مجددًا، وعندما أتصل بك لا تتجاهلني".

مس بأصابع يده اليسرى موضع الصفعة، ثم أردف: "تكفي هذه الصفعة كعقاب عن ترك الخوف يجتاح عينيّ، ولكن لن تثنيني مئات الصفعات عن الانضمام للاحتجاجات عندما يروق لي الأمر".

ابتسم إلى زوجة خاله وخديجة بعينين ترقرق فيها الدمع، ثم دلف إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه وقبع أرضًا.

مر بعدها ما يقرب من عشرة أيام قضاها أمير بين زيارات لطارق والانشغال بالعمل في المحل ومتابعة المظاهرات عن بعد، فضّل عدم الانخراط بها خاصة بعد أن اعتقلت الشرطة العشرات كان من الممكن أن يكون ضمنهم وحينها سيغدو بلا فائدة يتمكن وقتها من مناصرة صديق أو مزاولة عمل، كما أن السبب الأكبر في إثباط همته هو دخول

قضية خالد حيز إعادة التحقيق بشكل كامل، مما يعني سنوات سينسى خلالها الناس ما حدث من الأساس، ظل في حالة خمول إلى أن تطورت الأحداث بشكل خطير وأخذت الاحتجاجات السلمية التي لم تؤت ثمارها شكل انتفاضة شعبية بقوة أكبر وأصداء أعلى في يوم عم فيه السكون في الوهلة الأولى فكان كأنه السكون الذي يسبق العاصفة، سكون كان على وشك أن يقنع أمير بأن المحتجين قد سئموا، وأن أحدًا قام بوأد الاحتجاجات في مهدها فلا سبيل لحياتها مرة أخرى فذهب خالد بلا قصاص عادل ورقد طارق بلا مجيب ظافر، إلا أن هتافات الحشود اجتاحت الشوارع ولم يُتمكن من مقاومتها، كان كل شارع بمثابة مسيرة مختلفة ولكن على قلب واحد وبفكر واحد ومطالب متشابهة، ارتص الشباب كتفًا إلى كتف وقلدتهم الفتيات طلبًا لإسقاط النظام وإتاحة فرص عمل تقضي على البطالة التي تفشت في المجتمع، وتحسين الأوضاع المعيشية متخذين من طارق رمزًا، انضم أمير دون تفكير إليهم بعد أن خوّل لعبد الله إدارة المحل في ظل غياب خاله ذاك اليوم، فضّل هذه المرة أن يحمل صورة لصديقه الراقد بالمشفى وليس لافتة تندد بالحكومة وتضعه على رأس المستهدفين للاعتقال.

* * *

أنزل على الجهة الأخرى من المظاهرة قائد قوات الأمن الجهاز اللاسلكي عن أذنه بعد أن تلقى الأوامر، رفع القائد يده على مرأى من

باقي القوات فأخذ كل موضعه، وعندما أنزل يده بدأت قوات الأمن في الهجوم على المتظاهرين واستخدم بعضهم الرصاص الحي، قُمع الجمع باستخدام الغاز المسيل للدموع وبرصاصات تخترق الدخان الناتج عن القنابل متجهة بعشوائية إلى المتظاهرين، فأردت البعض أرضًا، منهم من يلفظ أنفاسه الأخيرة، ومنهم من يزحف باتجاه الرصيف بحثًا عن درع يقيه الرصاص، وسواء في ذلك الجدار وأجساد القتلى، عم الهرج والمرج بين المحتشدين وأصابهم الذعر، أصابت رصاصة رأس المجاور لأمير فأردته قتيلًا في الحال، اضطجع أمير بجوار الجثة ناكزًا لها فلم يلق ردًا غير رعشات بعض الأطراف، زحف باتجاه منزل يتوسط جداره الموازي للرصيف نافذة، أصاب عيار طائش أسفل قدمه اليسرى وهو يحاول عبور النافذة فألقى بنفسه للداخل وهو يصرخ ألمًا، لحسن حظه لم تتمكن الرصاصة من قدمه بل اكتفت بخدشها فقط لينزف جرح جديد في قدمه على مهل، نظر حوله فوجد نفسه في غرفة من منزل أحاط الغبار الأسود جنباته ليحكي عن قصة ابتلاع النيران له من قبل، خلع جوربه وقام بربطه إلى بعضه ثم ضمد على الجرح و شرزه بقوة ليتوقف النزيف إلى إشعار آخر لم يتمكن من تخمينه فعقله كان مشوشًا ولم يستطع حتى التفكير بما ستحمله الساعات القادمة في جعبتها، لكنه قرر في عميق نفسه ألا مفر من هذا المنزل إلا بعد توقف دوي صوت الرصاص بالخارج فأحكم إغلاق سحاب معطفه ثم وضع يده اليمنى بجيبه وضغط بيده اليسرى على الجرح أكثر، كان قراره في الانتظار حتى هدوء نسبي بالخارج غير سديد، اقتحم أحد قوات الأمن

المنزل ووصل إلى الغرفة التي يقبع بها أمير، نظر بخوف إلى الجندي مرتجفًا بسبب برودة الجو وفقدانه الكثير من الدماء، اقترب الجندي منه على مهل وهو يوجه بندقيته إلى رأسه، ثم أدارها فجأة وضرب بمؤخرتها أعلى عنقه ضربتين كانتا كفيلتين بإفقاده الوعي.

استيقظ صارخًا صرخة كأن الأرجاء اهتزت لقوتها، بعد أن أحمى أحدهم نصلًا في النار وكوى به أسفل قدمه اليسرى عند الجرح، ثم قال: "يمكنك إخراجه الآن".

جاء جندي من الخلف وحمل أمير على كتفه، لم يتمكن وقتها من تبين المكان الذي انسلت تفاصيله تحت سواد الظلام إلا من كشاف حمله حامل النصل ووجهه إلى باب حديدي تعلوه نافذة تمر بها ثلاثة قضبان من الحديد كأنها زنزانة، ولم يستطع أيضًا تبين ملامح حامله فقد لامس خصره كتف الجندي وواجهت رأسه المؤخرة.

ألقى حامل أمير به أرضًا بجوار المعتقلين الآخرين في ممر شبه مظلم، عض على شفتيه من شدة الألم، ثم نظر إلى آخر الممر حيث فُتح باب فجأة ودخل أحدهم إلى الداخل، ثم أغلق الباب خلفه، أضيئت المصابيح التي تعلو رأسه وباقي المعتقلين بطول الممر فاستطاع تبين ما حوله.

نظر باتجاه الرجل الذي دخل لتوه فوجده يرتدي بزة أنيقة لا تليق بوجهه المحتقن وملامحه القاسية، وقعت عينا الرجل على أمير ثم أشار إلى خلفه، نظر أمير إلى الخلف فرأى جنديًا قوي البنيان شديد

الواهنتين، هو من حمله وألقى به أرضًا منذ قليل، اقترب الجندي من ثم قرنه في الأصفاد التي تمر بمعاصم ما يقرب من خمسة عشر معتقلًا متراصين أرضًا في ممر طويل يربط الكثير من الزنازين بشكل متجاور، تبع بنظره الرجل ذا الملامح القاسية إلى غرفة في أول الممر، حرر جنديان أول المتراصين في الأصفاد وزجاه إلى داخل الغرفة وأغلقا الباب خلفه.

نظر أمير إلى أقرب معتقل إليه ذا جسم نحيف وشعر مجعد، وقال: "منذ متى ونحن هنا؟".

رمق الأخير أمير بلا تعبير، فاستطرد: "لقد كنت فاقدًا للوعي واستيقظت لتوي".

قاطعه النحيف: "أعرف أنك كنت فاقدًا للوعي، عندما تمكنوا من اعتقالنا وضعونا بسيارة كبيرة وأتوا بنا إلى هنا، مركز الشرطة! أو يمكنك القول بأنه الدرك الأسفل من مركز الشرطة، نزلنا من السيارة مقرنين في الأصفاد هكذا إلا أنت، كنت فاقدًا للوعي وكانت محاولاتهم لإيقاظك فاشلة فاضطر أحدهم إلى حملك إلى داخل الزنزانة هذه، ثم بعدها صرخت أنت فحملك إلى هنا".

حرك أمير أطراف أصابعه فوق الجرح، وقال: "نعم صرخت بعدما كوى أحدهم أسفل قدمي اليسرى، لكن بما أننا في قسم الشرطة لم يمر إذن زمن طويل على هذا".

- "فقط خمس ساعات".

- "ماذا؟! لكن كنا بمظاهرة بالقرب من قسم الشرطة بالفعل فلمَ قضوا خمس ساعات في إحضارنا؟!".

- "اتجهت بنا السيارة في البداية إلى منطقة هادئة، ثم عدنا بعدما هدأت الأمور نسبيًا إلى مركز الشرطة".

سأله بصوت خافت: "كيف عرفت كل هذا؟".

ركل ذو الشعر المجعد أمير في قدمه اليمنى بعد أن نظر إلى الثلاثة ضباط الذين تكفلوا بمراقبة المعتقلين، ثم همس: "يا لحماقتك! تسألني عن تفاصيل لا يخوض فيها إلا الأغبياء! الجميع يعرف بالطبع كل هذا فقد التففنا جميعًا حول نافذة السيارة التي كانت تحملنا، ذهبوا بنا إلى مكان ليس ببعيد وقاموا بالتقاط صور لنا ولك وأنت نائم كالأخرق".

استغرب أمير: "صور!".

- "نعم صور أيها الأحمق، ألا تعلم أيضًا لماذا؟!".

لم يجد أمير إجابة، فأكمل الآخر: "ليتمكنوا من جمع معلومات عنا يواجهوننا بها أثناء عملية التحقيق التي نخضع لها الآن واحد تلو الآخر، تكفيهم ساعتين فقط لجمع المعلومات وليس خمسًا، لذا أنا أتوقع الأسوأ".

همّ أمير بالرد، فقاطعه قائلًا: "يُستحسن أن تكون إجابتك أثناء التحقيق أكثر حكمة من أسئلتك الغبية هذه وإلا ستصير إلى ما لا يُحمد عقباه، ولكن أخبرني ماذا يفعل مصري في احتجاجات تونسية، هل أنت جاسوس؟!".

وضع أمير رأسه بين ذراعيه، ثم أسند ظهره إلى جدار خلفه في خيبة أمل وزفر: "جاسوس! وتنعتني أنا بالغبي؟!".

نظر ذو الشعر المجعد بعدها إلى أمير في عدم فهم فاكتفى أمير بالسكوت، تخلل صمت المكان وقتها بعض الهمهمات تصدر من غرفة التحقيق ثم قطع هذا الصمت انفتاح باب الممر ودخول رجل يحمل أوراقًا في يديه في عجالة توحي بأن أمرًا جللًا حدث، طرق باب غرفة التحقيق ففتح له أحد الجنود، تغيب قليلًا ثم عاد ورمق أمير قبل أن يذهب للخارج، أتى بعدها الجندي عريض المنكبين باتجاهه مسرعًا وحمله ثم أدخله غرفة التحقيق بعد أن ألقى بمن كان قيد التحقيق خارجًا وسط ذهول البقية.

جلس على كرسي مواجه للمحقق بأمر منه بعد أن نفث دخان سيجارته في اتجاه الجنود وأمرهم أيضًا أن يخرجوا باستثناء من حمل أمير، دار أمير بنظره في المكان المكتظ بالأوراق والأزياء الشرطية من جميع الأركان حتى غطت أطراف الباب، لم ينبس ببنت شفة فيما شرع المحقق في تتبع الأسطر التي حواها الملف بنظره ورمق أمير بين وهلة وأخرى، انتهى المحقق من القراءة الصامتة، ثم أشعل سيجارة أخرى غير تلك التي أكلت نفسها وهو يقرأ، صرف نظره إلى أمير، ثم ابتسم، وقال بعدما عدل نظارته وحرر عنقه قليلًا من رابطة العنق: "هل تعلم أنك تشبه ابن أحد أصدقائي كثيرًا؟".

أكمل المحقق دون أن يترك الفرصة لأمير ليجيب: "لقد أبدى دهشته هو الآخر من التشابه الغريب بينكما عندما أرسلنا له صورتك ليجمع أكبر قدر من المعلومات عنك".

أمسك المحقق بالملف، ثم أردف قائلًا: "وها هو قد فعل، لكن يبقى الفرق بينكما أنه يعمل في الشرطة الإلكترونية، يقوم بإغلاق الصفحات التي تملكها الجماعات الإرهابية على مواقع التواصل الاجتماعي، أو أي صفحات من شأنها المس بالأمن الوطني، بينما أنت تجوب البلاد من أجل تهديد هذا الأمن".

لم يستطع أمير منع قهقهته فصرخ المحقق به، توقف عن القهقهة لكن لم تختف الابتسامة عن وجهه، وقال: "أهذه مزحة؟ أي أمن أهدده سيدي؟! أنا مجرد مواطن يعمل من أجل بعض المال لا أكثر".

- "بعض المال! ألم يغدقوا عليك العطايا والأموال حتى الآن؟".

قام صارخًا: "من سيدي؟ من؟! أرجوك أخبرني ما ترمي إليه".

- "أنت وراء قتل خالد صديقك في مصر وإضرام طارق النار في نفسه".

ابتسم ونظر للمحقق فرأى الجدية على وجهه فلاحت علامات الدهشة على وجهه، وقال: "كان خالد أعز أصدقائي وصديقي منذ الطفولة، كيف تتهمني بقتله؟ ما علاقته بما أنا فيه الآن؟!".

تحشرج صوته ولمعت الدموع في عينيه، وهو يكمل: "هذا لا يُعقل، كيف! أنا.. أنا.. كنت في تونس هنا عندما وقع ما وقع لخالد، وكنت آخر من يعلم بموته، بالإضافة إلى.. أنه أعز أصدقائي، كيف تجرؤ على توجيه تهمة كهذه لي؟!".

- "أنا لم أقل أنك قتلته، أنت فقط حرضت على هذا، كما حرضت طارق على فعلته وأوصيته أن تكون أمام مبنى البلدية لتنشر الفوضى".

- تبًا! لقد صفعته الشرطية أمامي وحاولت منعه حتى من مقاضاتها لئلا يحتك بأناس لا قِبل له بهم، كل ما حدث لصديقيّ هو أن نوائب الدهر نزلت بهما".

تنهد المحقق.

- "أنا لا أستطيع رؤية الأمر هكذا يا أمير، ما يدور بخلدي الآن هو خريطة تتكون من مجموعة كلمات هي بترتيبي صداقة.. خالد.. قتل.. مظاهرات.. صداقة.. طارق.. ثم مظاهرات مجددًا، هددت الأمن القومي لدولتين وسببت الفوضى دون قنبلة واحدة، أنا أعترف أنك أمهر إرهابي رأيته حتى الآن، هيا أخبرني إلى أي جماعة تنتمي؟".

أخذت كلمة "إرهابي" من قلبه مأخذها ووخزته، فنظر إلى المحقق في ذهول غير مصدق ما طرق سمعه منذ قليل، لم يدر بماذا يجيب وكيف يدحض هذه المزاعم، تذكر حديثه مع أحد المعتقلين منذ قليل وأن أي إجابة حمقاء هي هاوية يحرق لهيبها من لم يُمعن التفكير فأخذ يؤامر نفسيه، نفس تدعوه إلى الاكتفاء بالصمت ونفس ألهبت جسده علّه يتحدث ويدرأ الشبهات التي أحاطها المحقق به.

استجاب للثانية، وقال: "لنفترض جدلًا أنني من وسوست إليه فعلته، فما بال الآلاف في الشوارع الآن؟".

نظر المحقق إلى السقف، ثم أجاب: "ربما تواصلت معهم عن طريق أحد المواقع الاجتماعية، لم نصل له بعد، كما فعلت مع قضية صديقك في مصر عندما أنشأت صفحة على الفيس بوك باسمه".

مزح أمير: "لمَ إذن لم تصلوا لها بعد؟ هل تعانون أنتم أيضًا من مشاكل في سرعة الإنترنت؟".

أومأ المحقق للجندي فاقترب من أمير ولكمه لكمة قوية على خده، بصق أمير بجوار قدم الجندي تعبيرًا عن احتقاره فلم يخرج مع المخاط دمًا، فقال: "لا تليق هذه اللكمة بثور مثلك".

امتعض الجندي لاستهزاء أمير فهمّ بتوجيه له لكمة أخرى إلا أن المحقق نهاه.

ذقن المحقق على يديه، ثم أعاد النظر إليه، وقال: "إلى أي فصيل إرهابي تنتمي؟".

- "هل تصدق حقًا أنني إرهابي؟!".

- "هل تستطيع أنت التفسير لي كونك صديقًا لشخصين تثير قضاياهما الفوضى؟".

- "إنها مجرد مصادفة، لكنها لا تثير الفوضى، الفوضى موجودة بالفعل وتجسدت في موت أحد بسبب الاستبداد، وإحراق آخر نفسه لنفس السبب، ليسوا إرهابيين وكذا أنا".

- "أنا لا أؤمن بالصدف".

ضحك أمير: "كيف تؤمن أنني حرضت الشرطة على قتل صديقي لكي ينقلب الناس ضدهم فاستجابوا، ثم وسوست لآخر أن يحرق نفسه ففعل دون أي تفكير، ولا تؤمن بالصدف؟! الصدف هنا أقرب للتصديق من هذا".

لم يجد المحقق ردًا، فأكمل أمير: "حقيقة أن الآلاف خرجوا ليطالبوا بحقوق سُلبت منهم وتمتع بها غيرهم حقيقة مخيفة، لأنها تعني إن لم تتدخل السلطة لتحقيق هذه المطالب على الفور فستستغل الجماعات الإرهابية هذا في بث العنف والأفكار المتطرفة، وبالتالي ستكون السلطة وقتها أخطر من الجماعات لأنها بسياسة التهميش والإقصاء ستقتل المتظاهرين، مما سيخلق في النفوس ضيقًا تتولى الجماعات الإرهابية بعد ذلك رعايته، أنتم توفرون على داعمي الإرهاب جهد إيجاد إرهابيين وبالتالي...".

فاجأ الجندي أمير بصفعة أحس بعدها بالصمم، تذكر بعدها عندما كان يجلس إلى مي يتسامران في مثل هذه الأمور، شعر أن نفسه الثانية استحضرت روحها وأجرت كلامها على لسانه، قطع المحقق شروده بصراخه فيه.

- "هل تهذي أم ماذا؟ أريد كلامًا مفيدًا".

أكمل كأن لم يسمعه: "ما هم إلا شرذمة قليلة".

فرد المحقق: "لقد نفد صبري، لا أريد فلسفة ولا أملك وقتًا لأضيعه في الإنصات إلى اجتهاداتك وأفكارك الخرقاء".

طرق أحدهم باب الغرفة فجأة ففتح الجندي الباب بعد إشارة من المحقق، دلف نفس الرجل الذي أتى بالأوراق منذ قليل، وقال: "هيا سيدي، يجب أن نرحل من هنا".

- "ماذا حدث؟!".

- "اقتحم المئات المركز بعدما عجز الجنود عن التصدي لهم، هرب أكثر الضباط بعد أن احترقت مكاتبهم بفعل قذائف "المولوتوف" التي يحملها البعض". قالها الرجل ثم اتجه ناحية أحد الرفوف الذي تعلوه ملابس وأخرج من بين الأزياء الشرطية زيًّا مدنيًّا وارتداه لكي يتمكن من الخروج دون أن يلفت الأنظار، فهم المحقق ما يفعله فنزع هو الآخر معطف بزته ثم رابطة العنق وألقاهما أرضًا، ابتسم أمير وقتها ووجّه بصره تلقاء المحقق فأمر المحقق الجندي المفتول الساعد أن يضعه في أصفاد ويغلق فمه بشريط لاصق ثم يختبأ بين الملابس والأوراق حتى عودته ولا يخرج أبدًا مهما حدث.

احتفظ المحقق بمسدسه أسفل قميصه، ثم خرج خلف الرجل الذي حمل له الأخبار والأوراق من قبل إلى أن وصلا باب الممر، التفت المحقق إلى الوراء قبل أن يترك الممر، ثم قال للجنود الذين تكفلوا بحراسة المعتقلين القابعين أرضًا في الأصفاد: "إذا دخل أي أحد غير شرطي هنا فأطلقوا عليه الرصاص الحي".

صاح المعتقلون بأعلى صوتهم فأخرج المحقق مسدسه، ثم أطلق رصاصة في اتجاه أحد المصابيح أعلى رؤوسهم فأسكتتهم بسرعة سلب الضوء من المصباح.

وجّه الجندي ركلة إلى جرح أمير فأضجعته أرضًا يصرخ بصوت مكتوم، قام بعدها الجندي بسحب ملابس من الرف وتغطيته ثم أغلق باب الغرفة وضوءها واستتر بين الملفات التي لامست سقف الغرفة من كثرتها بعد أن تأكد أن كل شيء بالخارج ما يزال على ما يرام.

سمع الجنود بعد مغادرة المحقق بعشر دقائق تقريبًا صوت ضجة تقترب من باب الممر، اقترب أحدهم في حذر وفتح الباب قليلًا لينظر فهجم عليه شخصان وأمسكا به، أطلق الجنديان الآخران النار بعشوائية فأسقطا الثلاثة عند الباب أرضًا، اقتحم بعدها مباشرة ما يقرب من عشرة مدنيين الممر، تراجع أحد الجنود إلى الخلف، ثم هم بإطلاق النار فوجد أن خزينة سلاحه قد نفدت فألقاه أرضًا ثم جذب سلاح صديقه ليعاود إطلاق الرصاص لكن كان رد فعل أحد المعتقلين أسرع، ركل بقدمه بطن الجندي فتمكن البقية من الهجوم على الجنديين ووضعهما في الأصفاد بعد تحرير الآخرين، هرع جميع المعتقلين إلى الخارج غير مصدقين أنهم طلقاء، سحب المتظاهرون الجنديين إلى الخارج بعد أن حملوا المصابين، فيما دخل اثنان إلى أحد الزنازين وبقيا فيها حتى خرج الجمع وعمّ السكون، ثم عادا إلى الممر، أخرج أحدهما من حقيبة ظهره بحرص بعض الزجاجات ذات عنق طويل ينتهي بلفافة، قاما بإشعال اللفافات ثم ألقيا بها داخل الزنازين واحدة تلو الأخرى إلى أن وصلا إلى غرفة أمير والجندي، حاول أحدهما فتح الباب فلم يتمكن.

انتفض أمير وقتها وهمّ بالقيام فاقترب الجندي منه، ثم أحاط بذراعيه عنقه وسحبه إلى الخلف بعيدًا عن مرأى بصر من ينظر من نافذة الباب وجثم فوقه.

وضع أحدهما الشنطة أرضًا ثم أخرج كشافًا، فقال له الآخر: "هيا بنا! ماذا تفعل؟".

همس الآخر: "انتظر، سمعت شيئًا يتحرك بالداخل". ثم وجه الكشاف إلى داخل الغرفة ونظر.

- "هل رأيت شيئًا؟".

- "لا شيء سوى أكوام من الأوراق والملابس".

- "ملابس! إذن هيا بنا نرحل".

- "بل هيا بنا نضمر النار فيها، هذا أفضل قليلًا من حرق بعض الأسرّة، أليس كذلك؟".

أخرج الأخير آخر زجاجة ثم أدخلها عبر قضبان النافذة فيما أشعل لفافتها الثاني بقداحته، ألقاها الأول إلى الداخل قدر استطاعته، ثم أغلق الباب من الخارج ولاذ هو ورفيقه بالفرار.

نتجت عن الزجاجة عندما سقطت على الملابس نار هائلة انتشرت تأكل في الملابس والأوراق أكلًا، جرّ الجندي أمير إلى الباب، ثم حاول فتحه فوجده موصدًا من الخارج، فصرخ من النافذة: "النجدة!".

استند أمير إلى الباب، ثم وقف على قدمه بعد أن تصبب عرقًا نتيجة ارتفاع درجة الحرارة، قلب الجندي المنضدة ووضعها كساتر يقيه النار بمحاذاة الباب وأخذ يصرخ، احتمى أمير بجواره بعدما أمسكت النيران بكرسي التحقيق، ثم أمسكت بالمنضدة والأوراق من خلفها تحترق، ظل يصرخ بصوت مكتوم بينما قبع الجندي أرضًا بين الباب والمنضدة متخذًا من أمير _الذي أمسكت النار بطرف بنطاله بعدما فرغت النار من المنضدة_ درعًا.

* * *

طرق صباح اليوم التالي باب غرفة ابنته خديجة، ثم دخل قائلًا: "هل اتصل أمير؟".

- "لا يا أبي، عكفت على الاتصال به طيلة الليل لكن كان هاتفه مغلقًا".

- "تُرى أين ذهب؟ ينتابني إحساس سيئ حول تغيبه".

علقت خديجة: "ربما صديقه بحالة سيئة ففضّل البقاء بجواره".

دخلت والدة خديجة الغرفة فجأة، وقالت: "أو ربما انضم إلى المظاهرات التي وصلت أرجاء تونس العاصمة".

رد الحاج إبراهيم: "وهل سيقطع كل هذه المسافة من أجل مظاهرة؟".

فأكملت زوجته: "لا تنس أن مركز علاج طارق بـ "بن عروس" بالقرب من العاصمة".

وصلت وقتها الطرقات الشديدة على الباب إلى آذانهم فخرج يجري باتجاه باب المنزل، فتح الباب فوجد ضابط شرطة يسأل: "إبراهيم محمود، خال أمير؟".

تقطّعت إجابته ارتباكًا: "أمير! نعم.. أنا.. ماذا.. ماذا حدث؟".

- "يجب أن تحضر معي الآن".

- "إلى أين؟!".

رد الضابط بابتسامة: "ستعرف بنفسك، الأوامر لدي أن أحضرك، صدقني لا أعرف لكن يمكنني إخبارك ألا تقلق وأن تزيل علامات

الخوف والارتباك من وجهك، فليس هذا اعتقالًا أو ما شابه، حتى يمكنك أن تغير ملابسك إن أردت، سأنتظر بالأسفل في السيارة".

- "حسنًا، سأغيّر ملابسي وأتبعك".

غيّر ملابسه ثم تبع الضابط بعدما طمأن زوجته وطلب من خديجة ألا تكف عن الاتصال بأمير، استقل سيارة الشرطة وهدأ إلى حد ما بعدما أيقن أن هذه ليست طريقة الشرطة في إحضار أحدهم، لكنه جهل السبب فازداد عجبه.

رن هاتف الضابط فهدأ السرعة قليلًا، ثم أجاب: "بلى، نحن في طريقنا إلى هناك، ماذا؟! حسنًا! حسنًا!".

غيّر الضابط مساره فجأة، ثم توقفت السيارة بعد قليل أمام المشرحة، أصابت رجفةً قلبه وترقرقت عيناه فترجى الضابط أن يخبره بما يحدث، فرد: "صدقني سيدي لا أعرف، كانت الأوامر أن أحضرك إلى قسم الشرطة، ثم اتصلوا بي وأخبروني أن نأتي إلى هنا".

- "من؟!".

فتح أحدهم وقتها باب السيارة المجاور لمقعد الحاج إبراهيم، ثم قال بهدوء: "هلا تبعتني".

رمق الضابط، ثم خرج من السيارة واتّبع الرجل الذي دخل مبنى المشرحة، ثم صعد إلى الطابق الثاني حيث ينتظر المحقق أمام إحدى الغرف.

قام المحقق وصافح الحاج إبراهيم الذي اعتراه مزيج من الخوف والتساؤل.

- "البقاء لله".

ابتلع ريقه، ولم يعلّق، فأكمل المحقق: "استدعى مأمور شرطة أمير بالأمس ليدلي بشهادته عن صفع الشرطية لطارق، اقتحم جمع من الناس القسم وأحرقوه فأمسكت النار به وبجندي آخر واحترقا بشدة".

على الرغم مما سمع من أخبار ظل رابط الجأش قويًا، قال بصوت منخفض: "أين هو؟".

فتح المحقق باب الغرفة ودخل وتبعه الحاج إبراهيم، كشف له عن جثة طمست النار ملامحها وأحرقت الطبقة الخارجية لجسدها، وقال: "أنا آسف على ما حدث له، عمّت الفوضى المكان بأثره وقتها ولم يتمكن أحد من إنقاذه أو إنقاذ الجندي، لنحتسبهما شهداء، أريدك فقط ألا تضع في حسبانك أي شيء، فقد تكفلنا بكل شيء ونحن نتواصل الآن مع السلطات المصرية وسيتم إرجاعه إلى وطنه دون تكليفكم أي شيء".

عاد إلى منزله بعينين حمراوين من فرط ما بكى، جرت خديجة باتجاهه، وقالت: "ماذا حدث يا والدي؟".

أمسك برأسه بعدما غزاها الصداع، وقال: "أخبرته من قبل إن أوقع بنفسه في المشاكل فلا يعود إلى المنزل ثانية، وها هو لن يعود".

- "ماذا تقصد يا أبي؟ ماذا؟".

أتت والدة خديجة فرأت الدموع في عين زوجها وتردد النفس في حلقه فجلست بجواره دون حراك، أحست خديجة وقتها بهول الكارثة وما حلَّ بوالديها وأكدت نظرات والدها ما ضرب عقلها، موت أمير!

لم يستطع أن يتحدث إلى أخته، وماذا سيخبرها بل وكيف؟! فأسند المهمة إلى زوجته، ثم دخل إلى غرفته.

عمّ سكون أسود حي سيدي جابر ثانية بعدما أُزهقت روحان وشُوه جسدان لشابين من شباب الحي، احترقت قلوب عائلة أمير على فقيدهم، الذي لم يعد لهم منه شيء إلا شهادة وفاة أوصلها أحد المسئولين الكبار إلى والديه، ثم أكد لهما أن الأحماض النووية أثبتت أنه أمير، جمع الحزن والمجلس قلبيّ وجسديّ السيدة ليلى ووالدة أمير، يترحمان على فقيديهما، بينما انقطعت مي عن الأكل والشرب، وكان لسان حالها: "أخبرته أن يبقى لأجلي فمات"، إلى أن انتهى بها الحال إلى المشفى.

* * *

اعترض كثيرون من الحقوقيين التونسيين قمع قوات الأمن للمظاهرات واستخدام الرصاص الحي فتجمعوا بالمئات في شوارع العاصمة تأييدًا لموقف أبناء سيدي بو زيد وحدادًا على من لقوا حتفهم أثناء المظاهرات، وصلت الاحتجاجات إلى مدن أكثر فأكثر حتى وصلت العشوائيات حيث تزداد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية سوءًا وتتفشى البطالة، ازداد الوعي أكثر فانتشرت المسيرات بشكل أوسع بينما قابل الرئيس هذا ببعض التنازلات، ونظر الإعلام بلا مبالاة، بل لم ينظر من الأساس إلى مطالب المتظاهرين، مات طارق

البوعزيزي متأثرًا بما حدث لقلبه قبل جسده فتصاعدت الأحداث بشكل مفاجئ واضطربت الأمور رغم التغيرات الوزارية التي أحدثها الرئيس ووعده بخلق فرص عمل، وما يزال الإعلام متجاهلًا لما يحدث بل وبدأ في مجافاة الحقيقة، كانت الهتافات في الشارع وقتها أقوى وأبلغ من الإعلام، فلم يجد الرئيس وقتها إلا اللجوء إلى دولة السعودية تحت تأمين ليبي، وكالعادة غيّر الإعلام لهجته في الحديث وبدأ يناصر الثورة بعدما أنهى بائع خضروات أسطورة استمرت ثلاثة وعشرين عامًا، قُتل خلالها من قُتل وظُلم من ظُلم.

تحسنت حالة مي إلى حد ما بعدما قضت فترة في المستشفى لتدهور صحتها.

* * *

استيقظت السيدة صفاء صباح يوم بعد أن سقط ضوء مصباح الغرفة على جفنيها فوجدت مي تبحث في خزانة الملابس الخاصة بها، قالت بعد أن تثاءبت: "صباح الخير يا مي، ماذا تفعلين؟".

نظرت مي إلى والدتها وقالت: "أما تزالين تحتفظين بقطعة القماش التي حِكتِها من قبل بألوان علمنا؟".

فركت السيدة صفاء عينيها، ثم نظرت إليها محملقة: "لمَ ترتدين ملابس الخروج؟ إلى أين ستذهبين؟".

- "سأخرج بصحبة سالي، فقط أخبريني.. أين قطعة القماش؟".

- "ستجدينها في حقيبة بأعلى الخزانة".

وقفت مي على أطراف أصابعها، جذبت الحقيبة وألقتها أرضًا، ثم أخرجت قطعة القماش وأمسكت بها وخرجت، نزلت والدتها من السرير، ثم خرجت من الغرفة تسأل: "إلى أين؟!".

أجابت مي قبل أن تغلق باب الشقة خلفها: "إلى مسجد القائد إبراهيم، اليوم هو الخامس والعشرين من يناير، موعد التظاهر".

* * *

كانت الأوضاع في مصر على صفيح ساخن، وبنجاح الثورة التونسية أُشعل فتيل الانتفاضة الشعبية في الخامس والعشرين من يناير، ثار شعب ضد مستبد آخر حكمه لمدة ثلاثين عامًا، تمكّن فيهم الفقر مما يقارب من نصف الشعب، تكوّن وقتها المجتمع من طبقتين لا أكثر، طبقة حاكمة وهي لا تتجاوز العشرين بالمائة وتمسك باقتصاد البلد وبنوكه على حساب الطبقة الأخرى المكافحة العاملة، والتي كان نصفها بالضبط معدمين وتحت خط الفقر، ثاروا بعدما ضاقوا ذرعًا بالكثير من القوانين المجحفة مثل قانون الطوارئ، والذي تتمكن الشرطة بموجبه من القبض على أي شخص في أي وقت حال الاشتباه به والتعامل معه بأي طريقة، وهذا ما حدث مع خالد وكثيرين غيره، كما يُمكِّنها القانون أيضًا من حجز أي شخص ولو حتى لفترة غير محددة ولسبب غير واضح، لكن يكفي ما فعلته مواقع التواصل الاجتماعي التي لعبت دورًا مهمًا افتقده الكثيرون وقتها، دور الحيادية

التي انتزعها الإعلام من قاموسه، وكانت لصفحة خالد سعيد والقائمين عليها مفعول السحر في تجميع المتظاهرين على قلب رجل واحد.

من بين كل اللافتات التي حملها الشباب وقتها كانت مي تحمل شيئًا مختلفًا، لافتة تحوي اسمًا واحدًا فقط لا غير.. (أمير).

وقعت عينا أسامة على الاسم فهرول باتجاه اللافتة إلى أن وجدها واقفة أعلى كتلة خرسانية وممسكة باللافتة ومحيطة عنقها بعلم مصر وناظرة إلى الأمام بعيون ترقرق الدمع فيها كأنها ترى شيئًا لا يراه غيرها، نادى عليها: "مي! مي! هل أنتِ بخير؟".

رمقته مي، ثم هزت رأسها إيجابًا ولم تُعقِّب. فضّل أن يبقى وقتها مجاورًا لمي خشية أن يمسها سوء، فذهب ثم عاد بلافتة تندد بما حدث لخالد، ازداد العدد إلى ملايين وبدأ قمع المظاهرات السلمية بطرق غير شرعية.

لم يتجاهل الإعلام هذا لكن تدخل وقام بتشويه الحقائق لتصب في مصلحة أناس معروفين، أعاد أسامة مي وصديقتها إلى منازلهما سالمين بعد أن حدثت اشتباكات بين بعض المتظاهرين وقوات الأمن، ثم عاد إلى ساحة المسجد ثانية يمر بين الصفوف إلى أن وصل إلى المقدمة، وجد أنه قد أُقيم حاجز من الأسلاك يفصل بين المتظاهرين وقوات الأمن فجلس أرضًا بين الطرفين وسط أجواء الصراخ المطالب بإسقاط النظام، وأخرج من حقيبته وجبة أعدها بنفسه، ثم تقاسمها مع أقرب

شخص له، فوجئ بعدها بأن جنديًا من الجهة الأخرى للحاجز يشير إليه أن يقترب، أخبره من تقاسم معه الوجبة ألا يذهب، لكن فضوله حمله إلى هناك إلى أن وصل إلى الجندي.

بادره الجندي بسؤال: "هل أجد معك بعض الماء؟".

رد أسامة: "بلى".

عاد إلى حقيبته التي تركها أرضًا، ثم أخرج منها زجاجة الماء وجلبها، ألقى الزجاجة إلى الجندي فالتقطها ثم شرب حتى أطفأ ظمأه، وما ظمأ الجسد إلى الماء كظمأ الروح إلى الحق. شكره الجندي ثم أعاد له الزجاجة، ابتسم أسامة للجندي بود، ثم همّ بالذهاب فسارع الجندي بقوله: "سأُنهي خدمتي بعد أيام وسأنضم للجهة الأخرى من الحاجز.. بينكم".

فرح بما قاله الجندي، ولم يجد ردًا إلا: "نحن بانتظارك".

❋ ❋ ❋

إن كنت من أولئك الذين تنطلي عليهم الأكاذيب دون مجهود فأنت هالك لا محالة.

❊ ❊ ❊

صيف 2014

تونس

توقفت سيارة أمام فندق فخم بالعاصمة التونسية ونزل منها محقق الشرطة، دلف إلى الداخل، ثم توجه إلى ركن بعيد هادئ حيث يجلس رجل اشتعل رأسه شيبًا، فأضاف ذلك مع لحيته الصرامة والجدية إلى قسمات وجهه، نظر ذو الملابس الداكنة التي لا تتماشى مع أجواء الصيف إلى المحقق، ثم قال: "أرجوك أخبرني أنه أمر يستحق تركي لزوجتي بالأعلى".

رد المحقق وهو يطالع الأرجاء بعيون ماكرة قبل أن يجلس: "لأكون صادقًا معك، إنه خبر سيئ إلى حد ما".

- "ومنذ متى تأتيني بأخبار حسنة؟ ماذا حدث؟".

- "ابنك على رأس قائمة داعش السوداء".

- "كيف؟!".

- "نشرت بعض صفحات داعش على مواقع التواصل الاجتماعي صورة له ورصدت مكافأة مليوني دولار لمن يسلمهم إياه".

تعجب الرجل: "مليونا دولار، ولمَ كل هذا؟!".

رد المحقق: "أنسيت أنه يعمل بالشرطة الإلكترونية هنا في تونس، ويقوم كهواية بغلق صفحات الجماعات الإرهابية، نشط مجتهد، أخبرني منذ فترة أنه يهوى غلق صفحات داعش بالأخص لأنها الأكثر صعوبة".

رد الرجل: "لا تعبأ! أستطيع حمايته".

- "وأنا أستطيع تخليصك من عبء حمايته".

- "وما المقابل إذن؟".

رد المحقق بعد أن أخرج السيجار والقداحة من جيبه: "مليونا دولار".

- "مليونا دولار! أنت تعلم أن حمايته لن تكلفني كل هذا، ماذا تريد أيها الماكر فأنا صديقك وأجيد فهم ألاعيبك؟".

نفث المحقق الدخان، وقال: "أنا لا أمزح، أريد حقًا مليوني دولار، لكن ليس أنت من سيدفعهم".

- "من إذن؟!".

- "داعش".

ابتسم الرجل.

- "كيف؟! هل سترسل لهم ولدي وتقبض الجائزة؟!".

- "لا شأن لي بولدك، لقد جئتك بحكم صداقتنا، وأريدك فقط أن تسهِّل لي إجراءات الذهاب إلى العراق، صدقني إن ساعدتني ستنشر داعش في العراق فيديو تذبح فيه ولدك بينما يمكث هو هنا بين أحضانك".

تعجب الرجل: "كيف هذا؟!".

- "لا تعبأ"، قالها المحقق، ثم ضغط سيجارته في المنفضة وهمّ بالرحيل.

أمسك الرجل بذراع المحقق، وقال: "لن تذهب قبل أن تخبرني ما تنوي عليه".

- "ليس لدي وقت".

عقّب الرجل بصوت عالٍ: "وأنا لم يكن لدي وقت عندما وافقت على مقابلتك".

جلس المحقق بعدما لفت ارتفاع صوت صديقه الانتباه، فأتبع الرجل: "أعلم كل ألاعيبك القذرة، وكل العمليات التي قمت بها، فلا ضرر من إخباري ما خطتك لجني مليوني دولار".

تنهد المحقق.

- "سأتلاعب بهم، هذا كل ما في الأمر، هيا اصعد لزوجتك".

زفر الرجل، وقال: "أعطني سيجارة واذكر لي كل شيء وكيف التلاعب مع هؤلاء؟ أنسيت أننا شياطين نسكن في التفاصيل ونعشقها؟ لكن احذر أن تكذب عليَّ أو تتناسى شيئًا".

تنهد المحقق، ثم ألقى بالقداحة والسجائر للرجل بعد أن أدرك أنه لا مفر، وبدأ في السرد، بينما أنصت الرجل بلهفة.

- "باختصار شديد ودون إعادة ما سأقول.. كنت أحقق مع المتظاهرين عندما بدأت الثورة فوقع تحت يديّ وقتها صديق مشترك بين مفجري الثورة المصرية والتونسية حينما كانتا مجرد احتجاجات وقتها لم ترتق إلى الثورة، أحسست أنه ينتمي لفصيل إرهابي أو ما شابه، من طريقة كلامه ومن المعلومات التي جمعناها عنه بمساعدة ابنك أدركت أنه ليس مجرد متظاهرًا، اقتحم المتظاهرون قسم الشرطة وقتها فخرجت من غرفة التحقيق وتخفيت بينهم إلى أن رحلوا، ثم عاودت فوجدت غرفة التحقيق تحترق وهو بداخلها مع جندي آخر، فتحت الباب فخرج وقتها من الغرفة يهرع ويركل بقدميه أي شيء يقابله علّه يخمد النار التي أمسكت ببنطاله وحذائه، ظل يصرخ ويترجاني أن أساعده فقد كانت يداه قيد الأصفاد وقتها، لم أدر ماذا أفعل فقد كان كل شيء يحترق من حولنا، خلع الجندي الذي أمرته بالتحفظ به ريثما أعود معطفه ثم أخذ يخمد النيران عن ساقيه، أصيب ببعض الحروق في قدميه وساقيه، أمرت الجندي أن يحمله ويتبعني، حينها هجم على الجندي على حين غرة وانتزع منه المسدس وأطلق النار على ساقه فباغته برصاصة في قدمه قبل أن يفكر في تصويب المسدس تجاهي، أصيب بكلم خارجي ليس بعميق فتكفلت بعدها بنقله إلى مكان يخصني، أرسلت ملفه والمعلومات التي جمعتها عنه إلى من همه كبح الثوار وقتها، صديق مخلص لي وللنظام أكثر

فكان رده أن أحتفظ به دون أن يعلم أحد بشيء، أرسلته إلى سجون أنا وأنت نعلمها جيدًا، سجون لم تطرقها أقدام أو أقلام جمعيات حقوق الإنسان بعد، تلك التي لا يتناول فيها أحد شيئًا إلا ما يقام به الرمق بعد أن يحظى ببعض الآلام، وبعدها...".

قاطعه الرجل: "تبًا لك! ما علاقة هذا فيما أنت مقبل عليه؟!".

- "هذا الفتى شبيه بابنك لدرجة كبيرة، أفهمت الآن؟".

- "لمَ لم تقل هذا إذن من البداية؟".

- "لأن الجزء القادم سيروق لك".

لم يعلق الرجل، فأكمل المحقق: "هذا الفتى هو الفتى المصري الذي زعمنا بأن النار قد أحرقته وبعثنا ببقايا الجثة عديمة الملامح إلى هناك".

انتفض الرجل.

- "يا إلهي! أنت خنزير".

ابتسم المحقق، ثم أتبع بهدوء: "رحل صديقي مع النظام ولم أستطع التواصل معه بعدها، وانتهى الأمر فلم أشغل بالي ونسيت الأمر تمامًا إلى أن أحيت صورة ولدك على صفحات داعش تفكيري، وأغراني الأمر فذهبت بنفسي إلى السجن وتفقدت الكارت الخاص بنا قبل أن آتي إليك، لا أُخفيك سرًا أنه جُن جنونه عندما رآني وظل يسب ويشتم إلى أن فقد وعيه وأيقظناه ثانية بطريقتنا، تحدثت إليه وأخبرته أن جماعة إسلامية علمت باحتفاظنا به فساومتنا عليه وقررنا أن نحرره، في الأول لم يصدقني، لكن عندما تظاهرت أنني سأعيد الاتصال بهم

وأخبرهم أنه يريد أن يُكمل حياته بين جدران زنزانته القذرة، ترجاني ألا أفعل، وبالطبع سيترجاني بعد قضائه الثلاثة أعوام هذه".

لم يبد الرجل اندهاشًا، وسأل: "وكيف تضمن أن جماعة إرهابية كهذه لن تخلو بك، وأن الفتى لن يسبب المشاكل وقت التسليم؟".

أجاب المحقق: "داعش يا صاحب السعادة أغنى الجماعات الإرهابية على الإطلاق، بل أولهم في تمويل نفسها بنفسها، منذ أن سيطرت على العراق الشهر الماضي وهي تسيطر على اقتصاد يربحها مئات الملايين، يبيعون بترول العراق بأسعار أقل من الأسعار العالمية لمن يشتري، بالإضافة إلى فرضهم سيطرتهم على فروع البنك المركزي العراقي بالموصل، الحرب الوحيدة التي يريدون الانتصار فيها أكثر الآن هي حرب الإعلام، وبالتالي هم يريدون أن يجعلوا من مخترقي صفحاتهم عبرة".

ابتسم المحقق، ثم أكمل: "وبالنسبة للفتى فكل ما يعرفه هو أننا سجناه لنتاجر به، وأنه بضاعة إلى جماعة أخرى، الآن يأمل أن يكونوا أكثر رحمة، المسكين لا يدري أن رأسه سيُجتز عما قريب".

رد الرجل: "سأساعدك، لكن سيكون هذا آخر عهدك بي وبابني، ولا أريد من الأموال شيئًا".

عقّب المحقق: "لا أحب خسارة الأصدقاء فسر نجاحي يكمن بهم.. لكن اتفقنا".

* * *

أنهى صلاته ثم خرج إلى الشرفة فرآه عائدًا من العمل، نادى عليه وطلب منه أن يصعد، صعد أسامة إلى الأعلى فوجده على الباب منتظرًا فصافحه ثم تبعه إلى الداخل في تعجب.

- "اجلس".

جلس أسامة فسأله الأستاذ محمد: "هل وجدت عروسًا؟ أخبرني، أريد أن أشاطرك الفرحة فأنت بمنزلة أمير رحمه الله".

تنهد بحزن.

- "وجدت بالفعل، ولكن لم يكتمل الأمر".

- "من هي؟".

- "إنها أخت عصام ابن الطبيب محمود".

- "هل تقدمت لها؟".

رد بسرعة: "لا يا سيدي، ما كنت لأفعل هذا بدونك، أنت والدي منذ أن وافت المنية والديّ".

- "ما الأمر إذن؟".

زفر أسامة: "أخبرت أخاها ذات مرة أني معجب بها، احترم ما فعلته ووعدني أن يناقش والده في الأمر، للحقيقة لم يكن بقدرتي شيء وقتها، ولم أكن قد أعدت ترميم الشقة التي تركها والداي لي، كنت فقط مجرد عامل في مكتب محاماة، بعدها تقلبت الأمور، موت أعز أصدقائي ثم ثورة شغلت وقتي، أدركت بعدها أن الفرح لم يُخلق لأمثالي، خاصة بعد أن تسامرت مع عصام ثانية وأخبرني أن والده غير موافق".

- "لمَ لا يوافق وقد أعدت ترميم الشقة وبدأت مكتب المحاماة الخاص بك؟".

- "لم يخبرني عصام لكني فهمتها من نظراته، لقد تجاوزت الثلاثين سيدي وابنتهم تصغرني كثيرًا، تريد شخصًا يناسبها وأنا لست مناسبًا، كنت مناسبًا من قبل، الآن ثلاثيني لا يناسب إلا ثلاثينية".

رد السيد محمد: "ألهذا غطى التجهم ملامحك ونال منك العبس؟".

اكتفى بالنظر إلى الأرض ولم يرد، فأردف السيد محمد: "لا تقلق، عروسك عندي".

رفع نظره، وسأل: "من؟".

- "مي".

تغلب على رعشة ألمت به عندما تذكر صديقه أمير، ثم تعجب.

- "مي! لكن ستنعتني بالخائن و.. وهل ستوافق؟ لقد...".

قاطعه السيد محمد: "لا شأن لك بهذا، ستوافق صدقني، فقط توقع خطوبة وزواج هذا الشهر، لقد تحدثت إلى والدتها منذ قليل وأنهينا الأمر".

* * *

كانت وقتها السيدة صفاء تختلق الأحاديث مع مي إلى أن قالت: "أمسك الحزن بقلبي يا مي، أريد أن أفرح وأعيد تطهير قلبي مما مسّه".

تصنعت مي عدم الفهم، فعقّبت والدتها: "أعلم أن كل جوانحك تنبض بالحب والوفاء والإخلاص لأمير، لكن ستتزوجين شئتِ أم أبيتِ".

ردت مي: "أنا بخير هكذا يا أمي".

فسارعت والدتها: "وأنا لست بخير! ولا الجيران، ولا نظراتهم".

- "لا تعبأي".

صرخت: "كيف؟! وإلى متى؟".

- "إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا".

- "سيأتي قريبًا جدًا من نرضى دينه وخلقه وسيكون قد قضى الله أمره".

- "عندما يأتي إذن!".

ابتسمت والدتها: "أتى بالفعل، فقد أخبرني عمك محمد أنه سيفاتح أسامة بالأمر".

شهقت مي: "أسامة! هل وافق؟! كيف؟!".

- "لا أدري، ولكن لو أخلص لأمير يومًا فسيوافق دون تردد".

- "كيف؟! أين الإخلاص في اقتناص خطيبة صديقه؟!".

تعجبت السيدة صفاء من ردها، فتساءلت: "اقتناص! وهل سيعود أمير إن لم يوافق أسامة على الزواج بكِ؟!".

طأطأت مي رأسها في وجوم، وعاد دمعها فأقبلت والدتها ثم احتضنتها، وهمست: "بيدك السعادة يا مي فامنحيها لي وللحي الذي اغتمت جنباته مما رأت ولقلب أسامة الذي انشطر حزنًا على ما كان".

❋ ❋ ❋

بعد مرور شهر ونصف

زفت الريح الناتجة عن الطائرة الهليكوبتر التي تحمل أمير والمحقق وخمسة جنود مدججين بالسلاح، فوق عربتين عسكريتين لداعش يعتليهما جنود بجثث ضخمة وعضلات مكتظة وأطراف ممسكة برشاشات ومدافع تكفي لإسقاط الطائرة أرضًا، نزل من السيارة أحد الجنود حاملًا حقيبة سوداء مرتديًا ملابس رقيقة، قصيرة إلى حد ما لتناسب سنة رسول تلاعب الكثيرون بسيرته الطاهرة لتحقيق أغراض خاصة لا تمت لتعاليم دينه بصلة، اقتربت الطائرة من الأرض شيئًا فشيئًا لتُمكن أربعة جنود من القفز بعد إلقاء أمير ثم ارتفعت مجددًا مخفية بداخلها المحقق وجندي آخر، وجه بعض جنود داعش أسلحتهم إلى محضري أمير بينما اكتفى البعض الآخر بمراقبة الطائرة

التي تحوم في الأفق، اقترب الجندي ذو الملابس القصيرة من أمير الملثم والمقيدة يده، ثم انتزع لثامه وأمسك برأسه قبل أن يُخرج من جيبه صورة ليقارن بينها وبينه، أحس الجندي أن شيئًا ما خطأ فأومأ إلى أحد الجنود خلفه أن يحضر، اختلس أمير نظرة إلى الصورة فدارت الأرض به، وقال في نفسه: "ليست هذه صورتي، أنا لم أرتد الملابس الشرطية قط!".

تذكر وقتها حديثه مع المحقق عندما أخبره أنه يشبه ابن صديق له كثيرًا وأن عمله غلق الصفحات الإرهابية فصرخ بهيستيرية: "ليست هذه صورتي! أنا لست شرطيًا ولم أكن أبدًا".

طرق صراخ أمير آذان المحقق عبر جهاز حمله أحد الجنود خلفه، أمر المحقق وقتها الطيار أن يبتعد بأقصى سرعة عن المكان، تحقق حامل الصورة وقتها من هاجس دار بعقله فأسقط الصورة أرضًا، ثم همّ بإطلاق النار على جنود المحقق، إلا أن أحدهم باغته برصاصة اخترقت صدره فسقط فوق الصورة، قبع أمير وقتها أرضًا وظل يصرخ إلى أن سقطت بجانبه أربع جثث تلفظ أنفاسها الأخيرة، اقترب أحد جنود داعش منه ثم أحكم قيد يده ولثامه ووضعه بالصندوق الخلفي للسيارة، ثم تشهد على جثة صديقه، ووضعها جانب أمير ناكس الرأس، أمسك حقيبة النقود ووضعها بجانبه وأدار المحرك، فيما قطعت السيارة الأخرى الطريق خلف الطائرة ضربًا بالرصاص والقذائف حتى أسقطتها أرضًا فوق رمال صفراء لبقعة شبه صحراوية.

غربت الشمس عن سيارتين لداعش في طريقهما للموصل بالعراق تاركين خلفهما طائرة تحترق وأربعة أجساد تلفحها الرمال.

- "هل الأمير بالداخل؟".

- "نعم، بالداخل".

- "أخبره أن أبا عمار عاد".

دلف حارس منزل الليبي، أحد قادة داعش، إلى الداخل، ثم عاد، وقال: "هو في انتظارك بالداخل".

دخل أبو عمار منزل الإمام الليبي وأقرأه السلام، أشار الليبي إلى فتاتين عكفتا على تنظيف المنزل فدخلتا إلى غرفة بالداخل، ثم التفت لأبي عمار.

- "هل غنمنا؟".

رد أبو عمار بعد أن ابتلع ريقه، وتنهد في يأس: "أعزيك في أبي رقاقة!".

رد الليبي: "إنا لله وإنا إليه راجعون، ماذا حدث؟".

قال أبو عمار بصوت جهور: "أشار إليَّ أبو رقاقة أن أقترب منه، قرأت في عينيه ما يقول إننا خُدعنا وأنهم جاءوا حاملين الشر، جرت الأمور على غير المتوقع، بل وبدأ إطلاق النار من ناحيتهم أولًا، قتلوا أبا رقاقة فأجهز الجنود فوق السيارة عليهم".

- "نصركم الله، أين المال؟ وأين المنشود؟".

- "كل شيء بالخارج في السيارة بجوار جثة أبي رقاقة، لكن أظن يا أميرنا أن من بالخارج هو الشخص الخاطئ، وليس مخترق صفحاتنا؛ فقد أمسك يصرخ أنه ليس من بالصورة وأنه بريء".

- "كيف إذن؟!".

- "لا أدري".

تضايق الليبي، ثم خرج بعد أن ألقى بقلنسوة على رأسه.

تهافت الجنود على يده الممسكة بسبحة تقبيلًا بمجرد رؤيته يقترب منهم، أشار الليبي إلى أحدهم فاعتلى السيارة، ثم حمل أمير وألقاه أرضًا بجواره، قال الليبي لأبي عمار: "أين الصورة؟".

رد أبو عمار: "انتظر سأحضر لك واحدة أخرى، فقد كانت تلك بحوزة أبي رقاقة".

ذهب أبو عمار بينما اعتدل أمير ونكس رأسه بين يديه المقيدتين، صرخ الليبي وقتها: "أتعتقد بأن التظاهر بأنك الشخص الخطأ سيجنبك ما سنوقعه بك؟ أنت هالك لا محالة".

رفع أمير رأسه فبصر رجلًا نحيلًا كثيف اللحية، ليس بقوة جنوده، فقال بابتسامة يملؤها الخوف: "أباللحية تؤول القيادة؟".

امتعض الليبي، ثم ركله، وقال: "ماذا تقصد يا أخرق؟!".

عاد أبو عمار يحمل صورة للضابط المنشود وقرّبها من الليبي، وقال: "يشبهه كثيرًا إلا أن الجسدين يختلفان، بالإضافة أن الشخص بالصورة أصلع، بينما هذا حليق".

رد الليبي: "هل تمازحني يا أبا عمار؟ هذا لا يعني شيئًا".

أقسم أمير: "أنا لست ضابطًا ولا مخترق صفحات، إنني مجرد شاب مصري كنت أعمل بتونس، لا ذنب لي سوى أنني شبيه بمن تبحثون عنه".

احتد الليبي: "اخرس يا طاغوت، كفى كذبًا يا رأس الشيطان أنت"، ثم التفت للجنود، وقال: "أغمدوا سيفًا في صدره، ثم اصلبوه لتأكل الطير من رأسه وتخترق مناسرها عينيه وأذنيه، كم فعل بصفحاتنا!".

صاح بأعلى صوته: "والله لم أفعل!".

اقترب المقاتلون من أمير فقفز أبو عمار وحال بينهم وبينه صائحًا: "والله قد تشاكل علينا الأمر فلا حكم إلا للخليفة الأكبر أبي بكر البغدادي، لنرجئ الأمر وننتظر رده".

علت همهمات الجمع بالإيجاب، فقال الليبي حانقًا: "أحكموا قيده وأبقوه إلى أن ينظر الخليفة في أمره، غدًا ظهرًا نواري فقيدنا التراب، عشرون جلدة عقاب من لن يحضر جنازة أبي رقاقة".

قالها الليبي ثم رمق أبا عمار وعاد منزله، تولى أبو عمار بنفسه قود أمير إلى أن أدخله إلى محبس خُصص من قبل لمن هو على شفا حفرة من الموت بسيف الليبي، حرر يديه من القيد وأحضر له طعامًا وتركه يقضي ليلته، بينما كانت تُزف العروس إلى زوجها.

زُفت مي إلى أسامة وعاد الفرح إلى قلوب الجيران وقتها، وبالأخص أسرتي أمير وخالد بعدما ضن الحزن بأفئدتهم، قبّل أسامة ناصية مي بعد أن وعدها أمام والدتها برغد العيش وحسن المعاملة كما عهدتاه

دائمًا، توارت مي أسفل ذراعه مودعة والدتها التي صاحبتهما حتى باب الشقة.

أتى أبو عمار أمير عصر اليوم التالي، وأقرأه السلام، فرد بوجه قاس: "متى تقتلوني وترحموني من هذا؟".

رد أبو عمار: "والله جئتك بما لم تُحط به.. بالبُشرى".

- "أي بشرى في جحيمكم هذا؟! لقد ظننت أن الطائرة التي أحضرتني عبرت الزمن ورجعت بي إلى الجاهلية".

ابتسم أبو عمار: "نعم، بالفعل سافرت الطائرة بك عبر الزمن وعدت ولكن ليس إلى عصر الجاهلية بل إلى عصر صدر الإسلام".

قال أمير بصوت عالٍ: "صدر الإسلام! والله أخبروني أنكم جماعة إسلامية، ولكن لم أعاين إلا الإرهاب حتى الآن! فأي جماعة إرهابية أنتم؟".

رد أبو عمار: "أخفض صوتك، خسئت! أنت في دولة الخلافة، الدولة الإسلامية".

- "دولة إسلامية! ما هذا؟! أرجوك أخبرني أين أنا؟".

- "أنت في العراق، ألم يخبرك محضروك إلى أين وجهتهم؟".

تنهد في إعياء.

- "والله خيروني بين سجنهم وبين جماعتكم الإسلامية فاخترتكم، أين البشرى يا...".

- "أبو عمار، أخوك أبو عمار، لقد حكم الخليفة فـ...".

قاطعه أمير: "خليفة! أي خليفة؟! كفى مزاحًا أرجوك".

فرد أبو عمار بضيق: "كفى أنت تظاهرًا بالغباء منذ البارحة، هل تعتقد حقًا أن البلاهة ستخرجك من هنا؟".

هز كتفيه منكرًا، وبدت نبرة استسلام في صوته.

- "صدقني أنا لا أتظاهر بشيء، بل أجهل تمامًا ما اقترفته يداي، أُودي بي في السجن ما يقارب الثلاثة أعوام، ثم ها أنا في سجن آخر".

علق أبو عمار: "هل سُجنت من قبل؟! بأي تهمة؟".

هدأ أمير من روعه، ثم أكمل: "أقسم لك أني لا أدري، كل ما فعلته هو أنني شاركت بالاحتجاجات في تونس، وجهوا بعد ذلك تهمة الإرهاب لي وزجوا بي في سجن بمفردي طيلة هذه المدة، ثم أخبروني منذ أيام أن جماعة إسلامية تريدني، أين كان عقلي؟! فيم ستريدني جماعة إسلامية.. أن أؤمهم؟!".

- "لمَ ذهبت إلى تونس من الأساس؟ وأين أهلك؟ أليس هناك من يهتم لأمرك؟".

شرد أمير: "أهلي! قضيت ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف في السجن ولم أستطع التكهن يومًا بماذا يشعرون، ولم أستطع يومًا التوقف عن التفكير فيهم".

زفر أبو عمار: "على الأقل ما زال لديك أهل يشغلون تفكيرك".

أحس أمير بحزن في عيني أبي عمار الذي أتبع بعد أن مرر يده على عينيه: "لقد فصل الخليفة في شأنك، أمرنا أن نخيّرك بين أن تبايعه أو أن يجز الليبي رأسك على مرأى ومسمع من الجميع".

- "هل هذه هي البشرى التي أتيتني بها؟".

لم يلق أمير ردًا، فسأل: "ألا تعلم يا أبا عمار كيف تتحدث إلى شخص انقطع عن العالم ثلاثة أعوام ونصف؟ أرجوك أخبرني أي هراء هذا الذي تتكلم عنه؟!".

أجاب أبو عمار: "حدث أمر جلل بعد ثورات العرب".

استغرب أمير.

- "ثورات العرب!".

- "نعم، ثورات العرب، نجحت الثورة التونسية والمصرية والليبية، وتمت الإطاحة برؤساء تحكموا في شعوبهم لسنين".

ابتسم أمير: "هل حدث هذا حقًا؟! وفي مصر أم أخطأت المثال؟!".

أكمل أبو عمار: "نعم حدث، ولكن ليست هذه كل الثورات".

أنصت أمير، فعّقب أبو عمار: "هناك طاغية يحكم سوريا لا يؤمن بالثورات، بل أظن أنه لا يؤمن بوجود إله، أباد المتظاهرين وما زال يفعل، قصف المنازل وما زال يفعل، ثم لجأ إلى بعض الحمقى وبرر فعلته لهم فصدقوه وما يزالون يفعلون، وما يزال الملايين يهاجرون إلى دول مجاورة هربًا من الجحيم في سوريا".

شهق أمير: "هل الوضع سيء لهذه الدرجة؟".

فرد أبو عمار بحرقة: "أسوأ مما تتخيل، أسوأ مما يمكنني الوصف".

- "هل عاينت الأمر بنفسك؟".

أطرق أبو عمار وترقرق الدمع في عينيه، ثم همس: "نعم، عانيت كل شيء وعانت أسرتي، أصابت قذيفة من جيش الطاغية منزلي فلم تُبق ولم تذر، انهار المنزل بزوجتي وطفلتينا كما انهارت قواي وأنا أحمل الكتل الصخرية بحثًا عن أشلائهن بمساعدة الجيران والمنقذين إلى أن انتزعتهن من تحت الركام أجسادًا بلا أرواح، لم أكن أدري وقتها أي الهون أنا".

أضعف الشجن أمير فاقترب من أبي عمار ودعا: "طيب الله ثراهن وخلدهن في جنته، هون عليك فوالله شعرت منذ البداية أنك لا تنتمي لهؤلاء الطغاة بالخارج".

اعتدل أبو عمار وأكمل: "بعد أن فقدت أسرتي ومنزلي لم أجد مأوى، جبت الشوارع بحثًا عن صديق ألجأ إليه قبل أن أدرك أنهم أيضًا يجوبون الشوارع بحثًا عن أصدقاء، كانت هذه الجماعة الطريق الوحيد أمامي فانضممت لهم دون تفكير خاصة بعد أن علمت أنني سأخضع لفترة تدريب هنا في العراق، ثم سأعود إلى سوريا لأقاتل قتلة أسرتي، وها أنا سأعود قريبًا أدراجي، لقد بايعتهم لأن في الأمر حياة بالنسبة لي وليس لإيماني بهم كما ستفعل أنت الآن".

- "ماذا؟!".

- "نعم، أريدك أن تفعل هذا، أريد أن أخرج وأخبر الليبي أنك بايعت أبا بكر البغدادي ليتوقف عن شحذ نصله آملا أن يمرره على عنقك أو يطعن به صدرك، بعدها يمكننا التفكير سويًا كيف نخرجك من هنا".

- "هل تنفذ هذه الجماعة عمليات إرهابية؟".

تبسم أبو عمار ضاحكًا من سؤاله، وقال: "بلى، وتبثها على صفحاتها أيضًا".

- "حسنًا! إذا بايعتهم، سأقتل الأبرياء باسمهم، فما الفرق إذن بين إيماني بهم وعدمه؟".

- "البدء في العمليات والقتل يتوقف على الفترة التي تمكثها هنا، لقد مر شهر وبضعة أيام على انضمامي لهم ولم أقتل ذبابة حتى الآن، كانت عملية استلامك بالأمس هي أول مهماتي، والحمد لله أنه عندما بدأ إطلاق النيران تكفل بقية الجنود بالصد ولم أطلق رصاصة واحدة، هذه ليست كأي جماعة أخرى، محترفون ويعلمون أن خطأ يرتكبه جندي واحد قد يودي بحياة العشرات منهم، ولقلة عددهم يتجنبون حماقات ترتكبها أيديهم؛ لهذا اطمئن فلن تبدأ القتال ولا إرهاب الناس ولن تتلوث يداك بالدماء إلا بعد شهر من التدريب، فعلى الأقل لدينا شهر نخطط فيه لإخراجك من هنا، وسأطالب بأن أتولى تدريبك هذه الفترة".

قالها أبو عمار بعد أن أبصر الرضا في عين أمير، ثم همّ بالخروج، فسأله: "أشعر أنك تحاول الوصول لشيء أجهله، لمَ تريد مساعدتي يا أبا عمار؟".

اقترب أبو عمار منه وأمسك بكتفه، ثم قال: "لأني سئمت الحديث إلى نفسي فأحتاج رفيقًا، وضجرت من الصلاة خلف شخص كل ما يشغل باله هو كيف يلقي بنا إلى التهلكة في سبيل إرهاب الناس

فأحتاج إلى إمام، على الأقل حتى عودتي إلى وطني، صدقني أنت لم تر شيئًا بعد ولم تعرف بخبايا الأمور لكن ستثبت لك الأيام أني لا أسعى وراءك لتحقيق شيء، أنا فقط أرشدك كيف تتجنب شياطين الإنس بالخارج".

هز أمير رأسه تفهمًا فخرج أبو عمار وصرخ في الناس: "الـ...".

تذكر أبو عمار أنه لم يسأل أمير مطلقًا عن اسمه، فأكمل: "...فتى! الفتى منا وأغدى بين صفوفنا وبايع خليفتنا فلا تظلموه فتيلًا".

صرخ الليبي: "فليخرج إذن وليجاهر ببيعته".

عاد أبو عمار إلى المحبس، ثم أخرج أمير وعاد به إلى الجمع بالخارج، فصرخ فيه الليبي: "ماذا تُدعى يا أنت؟".

- "أُدعى أمير".

فعقّب الليبي ضاحكًا: "لا أمير غيري هنا، من اليوم كنيتك هي كنية من مات بسببك، أبو رقاقة".

تعالت ضحكات البعض فقاطعها أمير بإعلانه البيعة بمساعدة أبي عمار، ثم عاد إلى المحبس، دلف أبو عمار خلفه قائلًا: "لمَ عدت هنا؟!".

- "وإلى أين سأذهب؟".

- "منزلي، ساعدتك لأحظى برفقتك، اتبعني".

- "أي منزل؟!".

- "مبنى صغير بالقرب من هنا، أرجّح أن أهله تركوه عندما دخلنا الموصل هنا كما فعل أصحاب أكثر المنازل".

احتضن أبو عمار أمير قائلًا بود: "انس ما مضى يا صاح، فللتو بدأت حياة جديدة".

زفر أمير: "هل تعتقد أن حياتي كانت السجن فقط؟ هناك أشياء لا تُنسى".

- "إذن هيا لنذهب إلى المنزل واشكُ لي بثك وحزنك علّك تُنسيني همومي التي تمكّنت مني وجعلتني كالأبله أبتسم دائمًا وأضحك لأتفه الأسباب".

رافق أمير أبا عمار طيلة الوقت، وجمعت بينهما صداقة قوية فلم يُخفِ أيًا منهما سرًا عن الآخر أبدًا، حكى أبو عمار لأمير عن طفلتيه وزوجته، فذكر أمير له ما حدث لصديقيه وحكى له عن مي، بل كان يحكي له يوميًّا عنها، كان يطفئ نار اشتياقه بالحديث عنها، نقطة ضعفه هي تذكّره لأهله، لم يستطع يومًا الحفاظ على رباطة جأشه كلما تذكرهم أو رحل الحديث إليهم.

عاد أبو عمار يومًا إلى المنزل ومعه فتاة عشرينية محجبة يقهر الغموض ملامح وجهها، مقطبة الحاجبين تنظر إلى أمير نظرات غامضة، أشار لها أبو عمار بيده إلى غرفة أمير فدخلت، اعتدل وقتها ثم اقترب من أبي عمار، وقال: "من هذه؟!".

رد أبو عمار: "فتاة".

- "ولماذا أحضرتها إلى هنا؟ هل ستتزوجها أم ماذا؟!".

- "بل سأزوِّجها".

- "لمن؟".

- "لمن تعتقد يا أبله؟ إنها لك، أتمازحني؟!".

صرخ أمير: "لي! بل أنت من يمزح، أحدِّثك كل يوم عن مي خطيبتي وعن أهلي، علّك تفكر كيف تخرجني من هنا وتعيدني إليهم، فتُحضر فتاة وتطلب مني أن أتزوجها؟! يا لحماقتك!".

بادل أبو عمار أمير الصراخ قائلًا: "الأحمق هو من ما يزال يظن أنه يمكنه العودة إلى وطنه بعد كل هذا، ألا تنظر حولك؟ ألا تدري كيف ينظر إليك الليبي؟ نظرات سخط تنتظر ضعفك حتى يظفر منك، وبعد كل هذا تعتقد أنه سيتركك تعود، أو على الأقل تذهب معي إلى سوريا؟!".

- "لمَ لا نحاول تسوية الأمور معه إذن؟ سأطلب منه أن أذهب معك إلى سوريا لننضم إلى الدولة الإسلامية هناك، ثم بعدها سأسافر من هناك إلى أي دولة أخرى".

- "أتعتقد حقًا أنه بهذا الغباء؟! إنه أكثر خبثًا من نظراته لك".

- "لا تعقِّد الأمور".

- "لا تستسهلها أنت، أنت ما تزال في ريعان شبابك فلا تُهلك نفسك بفرط التفكير، سأعود غدًا إلى سوريا مع الدعم الموجه للمقاتلين هناك، لن أعود ثانية، لهذا تركت لك زوجة وبيتًا يهونان ما قد يحدث وينسيانك ما قد حدث".

- "زوجة! هل تضمن عذرية هذه الزوجة؟".

- "تبًا لك! أخفض صوتك، أتبدو لك بغية؟".

- "لا أستطيع الجزم".

- "إذن لا تُسيء الحكم عليها، فو الله لتحملن وزرها إن تركتها لأحضان الليبي وحراسه الشهوانيين، هيا ادخل".

أمسك أبو عمار بيده، ثم زج به داخل الغرفة ففزعت حلا، قال أبو عمار متجاهلًا: "يا حلا! هذا أمير قد وافق على الزواج بكِ كما وافقتِ أنتِ على الزواج وأنا شهدت، تصبحان على خير".

خرج أبو عمار ثم أوصد الباب من الخارج ودلف إلى غرفته متجاهلًا صيحات أمير لكي يفتح الباب، توقف عن الصياح عندما سمعها تجلس على السرير بأنفاس متهدجة، التفت إلى الخلف فلاقت عيناه عينيها لأول مرة، أسندت ظهرها إلى الحائط المجاور للسرير ثم رمقته لثانية قبل أن تخفي رأسها بين ذراعيها وبمحاذاة ركبتيها، كشفت آخر نظرة له عن تفاصيل وجهها، عينان خضراوان يتوسطان رموش سوداء طويلة تظلل وجنتيها، اقترب منها قليلًا، ثم قال: "لا تقلقي لن أمسّكِ بسوء، بل لن أمسّكِ، فما حدث للتو لا يصلح أن يُعقد به قران".

قالها ثم رجع إلى الخلف وجلس على كرسي مجاور للباب، وأخذ ينادي: "يا أبا عمار.. أرجوك افتح".

لم يتلق أي رد فسألته حلا: "من أنت؟!".

رد بعد أن اختلس نظرة لرموشها: "لمَ تسألين؟"

- "لا أرى في عينيك نظرات الحمقى بالخارج، نظرات النشوة التي أحاطت بي منذ أن دخلت العراق!".

سألها أمير: "ومن أين أتيتِ؟".

فأجابت: "من سوريا".

- "كيف؟! هل سوريا بهذا السوء الذي أجبرك على تركها والمجيء إلى الجحيم؟!".

- "هي الجحيم الآن، كما أنني لم آتِ إلى هنا بطيب خاطر، بل جئت مع الكثيرات كسلعة لسوق المتعة هنا، لكن أنقذني أبو عمار في آخر لحظة بعدما تفاوض مع التاجر صديقه".

- "تخرجين قهرًا من وطنك لتشبعي شهوة أناس يخططون لاحتلاله دون وجه حق؟! يا لها من مأساة!".

أخذ العجب حلا فعلقت: "لم أعتقد لثانية واحدة أن أجد داعشيًّا ينظر للأمور بهذه الطريقة، أو أن يكون شجاعًا بما فيه الكفاية ليشجب تصرفات جماعته".

- "داعشي! لا أفقه الشتائم السورية".

ابتسمت عجبًا.

- "شتائم!".

لم تجد على ملامحه إلا الاستغراب، فأكملت: "هل كنت تنتشي قُبيل وصولنا؟ أشعر أن نشوة الخمر بدأت تلعب بعقلك فردتك إلى صوابك، الصواب الذي اتخذتموه عدوًا منذ نشأتكم الزائلة وتجرؤكم على العبث بالدين".

رد أمير: "هل هكذا تتحدثين إلى زوجك؟".

عقّبت حلا: "ها قد فقدت صوابك مجددًا! أنا لست بزوجتك".

وجّه نظره تجاهها، ثم قال: "أعلم أنكِ لستِ زوجتي، لأني لا أؤمن أن الزواج يكون بهذه الخسة، ولا أؤمن أنه مجرد وسيلة لكبح الشهوة، إنه أسمى من ذلك بكثير، لكن على الأقل كُفي عن مخاطبتي كما لو أنني أبو بكر البغدادي نفسه، أنا لست إلا شابًا دارت عليه الدوائر وعبث الدهر به كما عبث بكِ وبعقل أبي عمار بالخارج".

أنهى كلامه، ثم أخذ يدق الباب صائحًا: "أجبني يا أبا عمار".

سئم من تجاهل أبي عمار له فسبه، ثم ركل الكرسي واضطجع أرضًا بجوار الباب دون حراك.

أردفت حلا: "أتعلم.. سوريا ليست موطني، وليست العروبة عرقي، كما لم يكن الإسلام دیانتي".

أمسك أمير أنفاسه فاستطردت: "أعلم أني ثرثارة لكن اعذرني، قصتي هي بطاقة هويتي، مررت بالكثير، وكانت دائمًا بمثابة الدرع الواقي الذي يُسقط عني تهمة العهر".

وُلدت في فلسطين لأسرة يهودية، وبغضت لسبب أو لآخر عندما كنت صغيرة الانخراط مع أصدقائي الإسرائيليين، وببراءة أحببت اللعب مع الأطفال الفلسطينيين، كنت دائمًا أخاطب نفسي وأتساءل: "لمَ أدرس في المدرسة كيف أضطهد أصدقائي العرب بينما لا يضهدونني هم في المقابل؟! بل يتقاسمون معي كل ما يملكون من كسرات خبز أو بعض التمرات، انخرطت بالعرب كثيرًا حتى قاسمتهم لغتهم ثم كبرت وأدركت أنهم أيضًا يتقاسمون معي أرضهم، أدركت أنهم السادة ونحن العبيد رغم خداع المظاهر، هم أصحاب الحق ونحن بعيدين كل البعد

عنه، فتغيرت، تغيرت للأفضل، اعتنقت الإسلام بعدما أدركت أن تعاليمه هي الحق، وأن دياناتي محرّفة بأيدٍ لا تعرف عن رسل الله شيئًا، بل بأيدٍ قتلت رسل الله ثم حرّفوا رسالاتهم قدر المستطاع".

تنهدت، ثم أكملت: "أصابني ضرر جسيم مما فعلت واضطهدني والدي وكل من عرف أني أسلمت، لكن لم تستطع ألسنتهم السليطة ونظراتهم الحاقدة أن تتلاعب بعقيدتي التي رسخت في قلبي فجرت في باقي جسدي مجرى الدم، رق قلب والدتي يومًا وساعدتني على إكمال تعليمي الجامعي بالخارج بعدما شعرت بما ألقاه يوميًا من مضايقات، وأيقنت أنه لا سبيل للرجوع عما فعلت، اخترت أن أُكمل تعليمي في سوريا مع صديقات مسلمات من فلسطين لما سمعت عن سحرها وعراقتها، مرت فجأة بالشوارع سحابة ظننتها عابرة كما عبرت دولًا أخرى من قبلنا، وظنها آخرون متمردة فقاموا بردعها إلا أن ردعهم لاشى العراقة وقتل السحر ومحق الابتسامة عن السحابة وأفنى ما بها من قطرات، خُيِّرنا بين العودة لفلسطين وبين البقاء والمثابرة، فعادوا هم وبقيت أنا، ثابرت إلى أن انتهى بي الأمر هنا بين جماعة ظننت أنهم دار قوم مسلمين إلا إنني وجدت الإسلام فقط في قلب أبي عمار دون عقله، وفي عقلك وقلبك سواء".

لم يجد ردًا، ولم تنتظر هي إجابة فسحبت غطاء وألقته فوقها، ثم أسندت رأسها إلى الوسادة وأخذت تنظر إليه بعدما اتخذ من الأرض فراشًا حتى عبث النعاس بجفونها فغفت.

استيقظ صباح اليوم التالي على طرقات خفيفة على الباب، فأجاب بصوت منخفض بعد أن حكّ غمصًا كان بعينه: "تبًا لك يا أبا عمار، الباب موصد من الخارج، هيا افتح".

فتح أبو عمار الباب فخرج أمير وأغلق خلفه بهدوء، ثم التفت إلى أبي عمار، وقال: "ما الذي فعلته بالأمس؟ أجُننت! تغلق عليَّ بابًا مع فتاة وتتجاهل ندائي! هذا والله مدعاة للزنا، إنه لذنب بوءت به بالأمس فاستغفر ربك".

- "أستغفره في كل وقت وحين، لمَ أستغفره للجمع بين رأسين في الحلال؟".

صرخ أمير: "هل هذا حلال؟!".

فرد أبو عمار بثقة: "وهل الحلال أن أدعو الليبي ليعقد قرانكما فيشتهيها ويأخذها ثم يرميها لك أو أحد حراسه، إنما منعت إعلان زواجكما لهذا السبب".

- "على الأقل كان سيعقد عليها ويشهد ويعلن".

ابتسم أبو عمار استهزاءً.

- "يعقد! ويشهد! ويعلن! ما أحمقك! وما أفجره!".

أراد أمير أن يغيِّر مجرى الحديث، فسأل: "ماذا تعني داعشي؟".

- "لا عجب أنك لا تعرف، فقد قطع سجنك في تونس اتصالك بالعالم، كانت الدولة الإسلامية تطلق على نفسها في أول الأمر "الدولة الإسلامية في العراق والشام" فاختصرها العالم العربي بداعش، لكن لا تستعمل هذه الكلمة مطلقًا هنا فهي تثير حفيظة قادتنا، خاصة بعد أن غيَّروا الاسم إلى الدولة الإسلامية فقط الشهر المنصرم".

- "ليست شتيمة إذن؟!".

ضحك أبو عمار، ثم احتضنه، وقال: "كم سأشتاق إليك يا صاح! أستودعك الله".

فض أمير حضن أبي عمار، وقال: "هل ستخرج مع المقاتلين اليوم؟".

- "بل سأعود موطني، سوريا".

امتقع وجه أمير: "ماذا؟! ظننتك كنت تمزح البارحة عندما قلت هذا".

- "لا مزاح في هذا يا أمير".

- "وماذا ستفعل في سوريا؟! لقد أخبرتني بنفسك أن ضراوة الحرب بلغت أقصاها هناك وأن كل الجماعات المتلاحمة في ساحة المعركة تسعى في الأرض فسادًا، فمن ستقاتل ومن ستنصر؟".

- "سأهرب من داعش هذه هناك، وسأقاتل بعدها أول من يهاجمني وسأبقى هناك ما حييت".

- "بهذه السهولة؟!".

- "بل بأسهل، إنها موطني".

قرع أحدهم الباب بشدة وقتها فأسرع أمير وفتح فإذا بالليبي يدلف قائلًا: "أظن أن شهرًا كان كافيًا لتعليمك كيف تمسك السلاح وتقاتل بضراوة".

أمسك أمير لسانه في حلقه فنظر الليبي إلى أبي عمار، وأكمل: "احزم أمتعك ثم توجه إلى البئر القديم، فالراحلون إلى سوريا بانتظارك هناك".

- "هل يمكنني اصطحاب أمير معي؟".

- "أتقصد أبا رقاقة؟ لا! لا يمكنك فسيسافر هو إلى مهمة أخرى أبعد قليلًا".

سأل أبو عمار: "إلى أين؟".

فصرخ الليبي: "لا شأن لك، اذهب كما أخبرتك، وأنت يا أبا رقاقة اتبعني".

خرج الليبي فتبعه أمير بعدما أهوى بحركة باتجاه غرفته، فهز أبو عمار رأسه تفهمًا ويده مودعًا.

وصل الليبي منزله واتكأ على وسادة، ثم أدار وجهه له، وقال بعجرفة: "عندما أتيت إلى هنا منذ شهر وعفوت عنك كانت جماعة أنصار بيت المقدس تجوب سيناء معلنة بيعتها لنا".

انتفض أمير لسماع الاسم كعصفور انتفض عندما بللته قطرات بداية يوم مطير، فهمس: "سيناء!".

أكمل الليبي: "هم عضدنا هناك، فسنرسلك لهم لأداء مهمة، ستذهب الآن إلى المخزن خلف منزلي بصحبة أبي سعيد الأنباري وترتدي ملابس وتعد العدة حسب تعليماته، ثم انتظر مجيء البقية".

- "ما نوع المهمة؟".

- "ستعلم في الوقت المناسب، هيا اذهب".

تبدلت معالمه وطمس الاضطراب قسمات وجهه فلم يدر أيفرح بعودته إلى مصر أم يحزن لقلقه من طبيعة هذه المهمة المجهولة؟

خرج وتوجه إلى المخزن بصحبة الأنباري بينما دلف اثنان إلى الليبي وجثيا بجواره، فهمس لهما: "لا تخبراه تفاصيل العملية ولكن أشركاه وألهياه بالاستعداد لها، وعندما يحين وقتها مراه أن يرتدي الحزام الناسف وأن يفجر نفسه في المنطقة التي ستخبركما بها الجماعة هناك، وإذا لم يُذعن للأوامر فاقتلاه لخيانته".

❋ ❋ ❋

التاسع عشر من أغسطس 2014
الشيخ زويد، سيناء

دلف أبو ربيعة المصري، أحد مقاتلي تنظيم ولاية سيناء، إلى الشقة التي هيأها من قبل لتستقبل المجموعة القادمة من العراق بقيادة أبي صُهيب، أقرأهم جميعًا السلام، ثم انفرد بأبي صُهيب، وقال: "الأمير يبلغك السلام، ويريد أن يجتمع بكم غدًا لوضع الخطة".

- "أخبره أننا على أهبة الاستعداد، لكن...".
- "لكن ماذا؟".
- "منفذ الهجوم لا يعرف بعد ما ننوي فعله".
- "أتمازحني! كيف؟!".
- "إنها أوامر الأمير الليبي، وأخبرني أيضًا ألا أخبره إلا قبيل العملية وأن أقتله إن رفض".

- "تقتله إن رفض؟! ولمَ سيرفض؟ ولمَ تبقون بينكم شخص غير مطواع؟".

- "إنه حديث عهد بنا، وليس من الحكمة أن يحضر معنا لمقابلة الأمير غدًا، أريد أن تُشغله بشيء ريثما نعود".

لامس أبو ربيعة لحيته بأطراف أصابعه، ثم قال بعد دقائق من التفكير: "لمَ لا نطلب منه مراقبة قسم الشرطة الذي سننفذ به التفجير؟".

- "هل تعتقد أنها فكرة صائبة؟".

- "إنها الفكرة الوحيدة التي تُخرطه معنا في العملية دون أن يرى الأمير، فلا نعلم ماذا سيعتقد بنا إن تركناه بمفرده، ولا نستطيع ترك البقية معه لأنهم سيتولون توابع العملية".

- "ينتابني قلق".

- "لا عليك، فأنا أرجِّح أنك أسأت فهم تعليمات الأمير الليبي قليلًا، كما أنني أعلمه جيدًا، لن يرسل إلا من يصلح للأمر".

- "حسنًا، ولكن لمَ نرسله إلى قسم شرطة؟ فلنكتفي بمشفى أو أي شيء آخر".

- "لا تنس أننا في حاجة إلى من يراقب قسم الشرطة حقًا ليوافينا بالتفاصيل والأجواء، فهذا جزء مهم من الخطة، وعندما نرسله إلى القسم المنشود سنكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد".

- "يا لك من داهية يا أبا ربيعة!".

مر أبو ربيعة ظهر اليوم التالي بسيارته ذات الدفع الرباعي ونقل أمير إلى ساحة بالقرب من قسم الشرطة، وقال: "المطلوب منك أن تراقب المكان وترصد كل صغيرة وكبيرة دون أن تلفت الانتباه، أريدك أن تنخرط بالناس وتتحدث إليهم مع إبقاء كل شيء يفعله الجنود خارج القسم موضع بصرك".

- "هل أتيتم بي من العراق بعدما خضعت لفترة التدريب تلك لكي أراقب مراكز الشرطة؟! أريد القتال".

تهلل وجه أبو ربيعة فرحًا بعدما محت كلمات أمير كل الشكوك حوله، فقال: "لا تقلق يا بطل، هذه مهمتك فقط لبضعة أيام، لكن العمل الأكبر قادم وأعظم ويليق بشجاعتك".

وضع أبو ربيعة يده في جيبه، ثم أخرج هاتفًا وأعطاه لأمير، وقال: "عندما أتصل بك لا ترد، فقط توجه إلى نهاية هذا الشارع، ستجدني بالسيارة هناك عند مفرق الطرق، لكن تذكر.. لا تغادر المكان إلا بعد اتصالي ولا تلفت الانتباه".

نزل من السيارة وباشر مهمته، بينما ظل أبو ربيعة يراقبه من بعيد ليتأكد أن كل شيء على ما يرام حتى رحل بعدما قطع شكه باليقين، ظل يدور حول المبنى بارتباك إلى أن تراقصت بنات أفكاره بعقله ضاحكة: "اهرب! اهرب! عد إلى أهلك، عد إلى مي، فقد سنحت الفرصة للهروب".

بينما كان للمنطق جانب من فكره يقول: "لا تفعل، لن يتركوك، ستلحق بأهلك الضرر".

استسلم لأفكاره الأولى، ولم يجد مفرًا سوى الهروب، فقرر أن يبتعد قدر الإمكان عن قسم الشرطة وعن مفترق الطرق ذاك، وأن يطلب بعدها من أول شخص يقابله أن يخبره كيف يغادر هذه الأراضي الصفراء إلى عروس البحر. عاد المنطق ثانية يصرخ هذه المرة: "يا غبي! ستسقط بين أيدي الشرطة في أول نقطة تفتيش عندما يطالبون برؤية هويتك الـ...".

قطع تفكيره ظهور أحد الجنود فجأة مطالبًا إياه أن يُخرج بطاقة هويته، فاستدرك وقام بوضع يده في جيبه، ثم قال: "نسيتها في.. المنزل".

رد الجندي: "نحن في سيناء يا أنت، يحرص الكل على بطاقاتهم الشخصية حتى وإن خرجوا إلى الشارع دون ملابس، أخبرني لمَ تحوم حول المكان هنا؟".

أربكت طريقة كلام ونظرات الجندي تفكير أمير، فقال: "أريد التحدث إلى مأمور القسم هنا".

- "تدور حول المكان كالأبله ثم تريد الآن مقابلة مأمور الشرطة؟!".

- "أنااااا...".

- "اصمت وارفع يديك".

رفع يديه فقام الجندي بتفتيشه، وأخرج الهاتف من جيبه، ثم أمسك بذراعه وتوجه إلى داخل قسم الشرطة قائلًا: "لا أوراق، لا هوية، هيا لنتحرى عنك".

ظل أمير يتوسل الجندي أن يستمع له لكنه لم يُجبه، بينما كان الجندي ممسكًا به ويطلب من آخر أن يغطي مكانه لحين عودته رأى وقتها أحد الضباط يدخل إلى القسم ويبتسم إلى الآخرين في ود، فأفلت من بين أيدي الجندي، ثم هرع إليه صارخًا: "أرجوك سيدي أريد مساعدتك".

- "على رسلك، ما الأمر؟".

- "أحمل معلومات مهمة لا يجب أن تنتظر أكثر من هذا".

أحس الضابط بجدية نظرات أمير وتوسله فأمره أن يتبعه، رافق الضابط إلى داخل قسم الشرطة بينما عاد الجندي إلى موقعه.

دخلا إلى مكتب الضابط الذي جلس على كرسيه، ثم قال: "أتمنى أن يكون الأمر بنفس جدية نظراتك لي بالخارج".

جلس أمير على كرسي مقابل ورد: "وأنا أتمنى أن أكون قد استنجدت بالشخص المناسب".

- "أليس ضابط الشرطة مناسبًا لحل مشكلتك؟".

- "إذا صدقتني وأنصت إليَّ فلن يتمكن أحد من مساعدتي غيرك".

- "هيا تحدّث، لا وقت لدي".

تنهد أمير، وقال: "ما فكرتك عن شخص التحق بالدولة الإسلامية قهرًا، ثم هرب منهم؟".

تفاجأ الضابط، ثم رد بعد تفكير: "تقصد داعش! متهم إلى أن يثبت أنه حقًا لا ينتمي لهم".

- "حسنًا! سأثبت لك الآن".

- "تثبت لي ماذا؟".

حكى موجِز ما حدث منذ انضمامه إلى داعش إلى أن عاد إلى مصر، فباغته الضابط بسؤال: "أين كنت قبل العراق؟ وكيف وصلت إلى هناك؟".

رد أمير: "صدقني سيدي لا وقت لدي، الهاتف بالخارج مع الجندي سيتصل أبو ربيعة في أي وقت وسأقابله عند مفترق الطرق في نهاية الطريق المواجه للقسم".

قام الضابط ونظر من النافذة خلفه فأتبع أمير: "اتبعنا سيدي أو مر أحدهم أن يتبعنا لتتأكد من صدق كلامي".

لم يلق إجابة فقام وخرج من المكتب ونزل للأسفل، ثم استرد هاتفه من الجندي وجلس أمام المبنى المجاور لقسم الشرطة، ظل جالسًا ما يقرب من ساعتين يفكر فيما فعل ويراقب ما يحيط به إلى أن اتصل به أبو ربيعة فتوجه إلى مفرق الطرق بعدما نظر نظرة أخيرة إلى نافذة مكتب الضابط.

أخذ أمير يحكي طيلة الطريق لأبي ربيعة عما شاهده وعن الأجواء وما لفت انتباهه، ذكر كل ما يروق لأبي ربيعة حتى ولو كذبًا، ظل ينظر في مرآة السيارة ليرى هل اتبعه الضابط أم لا، لم يلحظ شيئًا فزفر مستسلمًا نادمًا على ما فعل، أوصله أبو ربيعة إلى فرقته في الشقة ثم رحل، فزع من الأسلحة والمتفجرات الملقاة في أحد جوانب الشقة، فقال بعدما أصابته رجفة خوف: "ما هذا يا أبا صهيب؟!".

رد أبو صهيب بابتسامة: "إنها تذكرة رحيلك".

- "رحيلي!".

- "جاءت الأوامر من الليبي أن ترتدي أنت الحزام الناسف وتبدأ سلسلة الهجمات التي سنقوم بها الليلة".

شهق أمير: "حزام ناسف!".

فرد أبو صهيب: "نعم، ما لي لا أرى الفرح على وجهك؟!".

صرخ أمير: "أي فرح أيها الأحمق؟! لن أرتدي شيئًا".

لكم أبو صهيب أمير، ثم أمر البقية بتقييده، وقال: "كان تكهن الليبي ورأيه فيك ثاقبًا، أبعدوا هذا المارق عني، سأتكفل بذبحه بعد انتهاء المهمة ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يعصي الأوامر".

بينما كانوا يمسكون به محاولين تقييده اقتحمت الشرطة المكان فأخرج أبو صهيب سلاحًا، ثم همّ بإطلاق النار على الضابط، أول من ظهر، إلا أن رصاصة الجندي كانت أسرع إلى ذراع أبي صهيب فأتكأته أرضًا، رفع البقية أيديهم وأمسك الجنود بالجميع وسيطروا على الموقف، نظر وقتها إلى الضابط منتظرًا منه أن يأمر الجنود أن يتركوه إلا أنه لم يفعل.

جلس أمير على كرسي خشبي مجاور لمنضدة خشبية أيضًا في منتصف غرفة بجدران قاتمة ومصباح فوق رأسه يضيئ فقط منتصف الغرفة، ذكّرته الأجواء بغرفة التحقيق في تونس، فتمنى لو انتهت حياته هناك مستعرًا، أخذ يفكر في نفسه: "هل صنعت أمريكا داعش كما فعلت من قبل مع الجماعات الأخرى؟".

بدأ يتساءل: "لمَ تركه الضابط يرحل ولم يُمسك به ويسجنه بعد كل ما اعترف به؟!".

دلف الضابط إلى الغرفة فجأة، ثم جلس على الكرسي الآخر قائلًا: "نظراتك أفصح من لسانك".

- "لقد اعتقدت أنك خنتني".

- "وأنا تأكدت أنك اعتقدت هذا من نظراتك لي هناك".

زفر أمير: "متى سأرحل إذن؟".

- "هناك محاكمة ستُعقد ويُنظر في شأنك، لقد عدت من داعش وليس من رحلة، ليس هذا بالأمر السهل".

- "تبًا!".

- "لا تقلق! هيا أخبرني باقي قصتك".

- "أي قصة؟!".

قام الضابط، ثم أخرج مفتاحًا من جيبه وحرر يديّ أمير من الأصفاد، وقال: "قصة ما قبل العراق".

هز رأسه بابتسامة وهو يدلِّك معصميه بعدما أمسك الحديد بهما لساعات، ثم سرد للضابط ما حدث بالتفصيل منذ أن رحل عن مصر إلى أن عاد، خرج الضابط بعد أن طمأنه أنه سيتولى القضية وأنه سيتواصل مع أسرته ويخبرهم بعودته.

- "ستتواصل مع أسرتي؟ ستُخلي سبيلي؟ هل حقًا تصدقني؟".

- "لقد عانيت الكثير يا أمير فاختلط عليك الصالح بالسيئ، نعم لن يغمض لي جفن قبل أن أتاكد من كلامك، وإن صح فأقسم أن البراءة سبيلك".

لا يدري لمَ لا يصدق ما قد سمع لتوه، فأكمل الضابط: "لن أفعل هذا بمفردي، سيساعدني الجندي الذي أحضرك لي، والمأمور الذي كنت تود لقاءه لتُفصح عن الخلية الإرهابية، ولن يعبث القضاء بقضيتك، كان من السهل أن تذعن للأوامر وتفجِّر العشرات بحزامك الناسف، لقد مررت بالكثير جدًّا، ولكن قررت أن تنقذنا جميعًا فسنردها لك جميعًا، أهلًا بك في مصر، لم تختلف السجون كثيرًا من الداخل، ولكن أوعدك لن يطول انتظارك بها دون وجه حق".

دخل الضابط مكتبه، ثم رفع سماعة الهاتف، وقال بعد أن ضرب بأصابعه عدة أرقام: "هل جهزت الملف؟ إذن أحضره فورًا".

أحضر أحدهم ملفًا أصفر، ثم وضعه على المكتب أمام الضابط فالتقطه وأشار له أن يرحل، أذهل ما يحويه الملف الضابط فوقف متسائلًا: "كيف مات في 2011؟! كيف؟!".

لم يدر كيف يتصرف ولا ماذا يفعل، فاتصل بوالد أمير من الأرقام بآخر الملف، ثم طلب منه أن يحضر بأسرع وقت ممكن، حضر صباح اليوم التالي السيد محمد وأسامة إلى مركز الشرطة بسيناء، فجمعهما الضابط بأمير دون أي مقدمات، لم يصدقا عينيهما وظلا يبادلانه الأحضان والدموع إلى أن انتهى من سرد ما حدث لهما.

سأل الضابط والد أمير: "هل أخذ أحد منك سيدي ومن زوجتك عينة حمض نووي؟".

- "لا، لم يحدث".

- "هذا ما توقعته، دليل آخر نواجه به الطبيب الشرعي الذي أخرج شهادة الوفاة، إذ كيف استطاع أن يثبت النسب بين الجثة التي دُفنت وبين السيد محمد دون حمض نووي، مع العلم أنه لا توجد قاعدة بيانات بالأحماض النووية هنا في مصر".

ابتسم أسامة، وقال: "لا داعي لهذا يا حضرة الضابط، فأمير نفسه ما يزال حيًّا يُرزق، هذا أقوى دليل".

- "أريد أن أواجهه بكل شيء، بأن أمير ما يزال حيًّا، وأتهمه بالتزوير في أوراق رسمية، كما سنحضر عينة حمض نووي من فتات عظام قبر أمير المزور، وسأدلي بشهادتي أنه لولا مساعدته ما كنا لنمسك بتلك الخلية الإرهابية، أريد أن أفحمه بجميع الأدلة، سيقوي كل هذا موقفنا في القضية، وصدقوني قوة موقفنا تعني براءة أمير".

تم ترحيل أمير، بينما عاد أسامة والسيد محمد إلى الإسكندرية مجددًا بأخبار سارة ربما تُوقف قلب والدة أمير فرحًا، وقلب مي ندمًا"

عاد إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أشهر بفضل ضابط ضرب أروع الأمثلة في مناصرة الحق، برأّت المحكمة ساحته من الانضمام إلى جماعة إرهابية بالنظر إلى المعطيات الأخرى، ثم بدأت محاكمة الطبيب الشرعي الذي وشى بمن رشاه ليفعل هذا، وامتدت الخطوط المنبثقة خارج مصر فأغدت محاكمة دولية.

علت الزغاريد مهنئة مباركة وصوله إلى منزله، وتجمّع الناس يصافحونه بين استغراب وحيرة، لمح من بعيد مي تقف بجوار صديقتها سالي ببطن منتفخة، دقق النظر، ثم خاطب نفسه: "إنها حُبلى! تزوجت مي وأشهرت لهذا لم تزرني مطلقًا، لهذا كلما كنت أسأل أسامة عنها يتهرب من الإجابة".

أكمل مصافحة الجمع وشكرهم، ثم اقترب من أسامة هامسًا: "من تزوجت مي؟".

ارتبك أسامة وتغيرت معالمه، عندها أدرك ما حدث فصعد إلى الأعلى، قابل والدته تجري على السلم فاحتضنها وظلا يبكيان إلى أن أتت مي من الخلف وربتت على كتفه، التفت فوجدها وقد برقت عيناها بوميض من الدمع، قال لها بصوت يتخلله نحيب قبل أن يتركها ويصعد: "ألا تبًا لحب هذه الآلام عُقباه".

* * *

ظل أسبوعًا كاملًا منقطعًا عن الحديث، ولا يأكل إلا ما يقيم رمقه إلى أن عقد العزم فجأة على زيارتهما، فخرج يومًا قبيل غروب الشمس متجهًا إلى منزلهما بعدما أصبح لسان حاله: "لأي ذنب سأقاطعهما؟ من كانت ستنتظر مي بعدما وصلتها جثتي؟".

وجد في طريقه امرأتين ترافقان فتاة مرتدية لثياب رثة ومتخذة على وجهها نقابًا وتمشي بوهن ناظرة إلى الأرض بخجل، أشارت إحداهن إليه فانتفضت ذات الثياب الرثة ثم جرت باتجاهه وألقت نفسها في حضنه، ثم فقدت وعيها.

عقّبت إحدى المرأتين: "كانت تسأل عن منزل خالد صديقك فاهتدت لنا، وعندما أشرت لك وأخبرتها أنك صديقه حدث ما حدث للتو".

- "ألم تخبركما من هي؟".

اقتربت إحداهما، وكشفت وجهها، فصرخ: "حلا!".

حملها وعاد إلى منزله وقام بمساعدة والدته بردها إلى وعيها، انتظر حتى أفاقت من غيبوبتها، وعادت إلى سجيتها، فسأل: "ما الذي حدث؟ كيف أتيتِ إلى هنا؟ أين أبو عمار؟".

زفرت حلا بعدما ظلت صامتة شاخصة لساعات كأنها فقدت النطق: "في طريق عودتي مع أبي عمار وباقي المقاتلين إلى سوريا أخبرني كل ما أخبرته أنت من قبل عن نفسك، وعندما وصلنا إلى داعش في سوريا هناك، سرق أبو عمار سيارة وأوصلني إلى منطقة بها الكثيرين من المشردين الذين قُصفت منازلهم، ثم ودعني ورحل، رحل وهو يهذي بثلاثة أسماء "لارا"، "ريماس"، "هند"".

- "إنهن زوجته وطفلتاه".

مسحت دمعات انسابت إلى خدها، ثم استطردت: "تمكنت من اللجوء مع البعض إلى مصر هنا بالنقود التي منحني إياها أبو عمار قبل أن يتركني، أدركت أن البقاء في سوريا والموت على أيدي الطغاة أهون من الشقاء والعذاب الذي قاسيته في رحلتي إلى هنا، وبعدما ضاقت بي الأرض بما رحبت هنا في مصر ظللت أجوب الشوارع سؤالًا عن الإسكندرية ومنزل خالد صديقك لما أخبرني أبو عمار أنه مشهور، لم أتخيل للحظة أن آتي إلى هنا ولا أن أجدك مرة ثانية".

- "لا تقلقي يا حلا فلن يهدأ لي بال إلا بعد أن أردك إلى عائلتك في فلسطين".

- "والله لن أعود إلى هناك وبي رمق من الحياة".

ساعة.. يوم.. شهر ثم شهران..

- "هل تقبلين؟".

- "نعم، أقبل".

تزوج أمير بعدها بشهر من حلا بعدما حكى لوالدته ووالده عنها وما حدث بينهما، ارتمت على الفراش فتبعها مداعبًا خدها بقبلة قائلًا: "طالت بي الغربة، لكني انتهيت إليكِ يا مي فلا عودة".

- "مي!".

احتضنها، ثم قبَّل رأسها متأسفًا، فقالت بعدما ارتسمت على محياها ابتسامة: "لا عليك، فلست حلا أيضًا".

ضحك أمير.

- "نسيت أنكِ إسرائيلية الأساس، الإسرائيلية التي احتلت قلبي، بالمناسبة.. ماذا كان اسمك؟".

أمسكت بيده، ثم قالت بعد تنهيدة يملؤها الألم: "تاليا.. تاليا موشيه تمام".

تمت بحمد الله